الأستاذة: شهرزاد بن يونس

محاضرات في مقياس علم الدّلالة

السّنة: ثانية ماستر

تخصّص: لسانيات عربية

محاضرة

المجموعة الخامسة

المحاضرة الخامسة

المعنى المعجـميّ

يقول بالمر: «يصعب كثيرا في اللغة-إن لم يكن مستحيلا -أن نحدّد بدّقة ما المعنى؟ what » ( ) « the meaning is . إنّ السّؤال الإشكالي المطروح في هذه المقولة يؤكّد أنّ المعنى في مقابل الرّسالة (message) يمكن تعيينه أو تحديده مستقلا عن اللّغة، بينما يصعب ذلك لسانيا، وأرجع ذلك إلى جملة من الصعوبات لعلّ أهمها الآتي:( )

-1عدم إمكانية تحديد وتعيين المعنى مستقلا أو بعيدا عن اللغة ذاتها.

-2المعاني لا تبدو أمورا ثابتة في العادة، إنّما هي أمور رهن بالمتكلمين والسامعين والسياق . (في الأدب يتشعّب المعنى الخاص أو الفردي في النّمط الطبيعي له وهو المعنى المتعارف عليه).

ولكن رغم هذه الصّعوبة في استكشاف حدود المعنى، فإنّ الدارسين اللّغويين القدماء منهم والمحدثين حاولوا جهدهم ضبط هذا المصطلح المستعصي.

I -تعريف المعنى:

اشتقت لفظة (المعنى) في مستواها اللغويّ من الجذر (ع ن ي) على صيغة المصدر الميميّ لتدلّ على حقل دلاليّ موازيا لها مثل: المقصد، المفهوم، الدّلالة، المغزى، المضمون. وكثيرا ما يقابل (المعنى) مصطلح (اللّفظ) مما ييسّر علينا معرفة العلاقة القائمة بين هذا المركب العاطفي (اللفظ والمعنى) خاصة في حقل النقد والدّراسات اللغوية والبلاغية.

أما في المستوى الاصطلاحي فقد حاول "أندريه لالاند" تقصّي حدّ المعنى بشكل غير نهائي قائلا أنّ المعنى هو «ما تعنيه، ما تُبَلِّغُه كلمة، ما تُوصِلُه إلى الفكر عبارةٌ أو أيّةُ علامة أخرى تلعب دورا مماثلا »( )؛ قاصدا به حالة فكرية أو شعورية يرغب المتكلّم إيصالها لل متلقي. فمضمون الكلمة أو العبارة هو مضمون نفسيّ معقّد جدّا، يقوم على إرادة المتكلّم في تحقيق الشّعور بالفهم لدة السّامع فـ «هو موقف وحركة فكريان يتضمّنان خَيْلَات (*) فردية وعَيْنِيَة، واتجاهات تنضاف إليها الإرادة لدى المتكلّم والشّعور بالفهم لدى السّامع»( ). ومنه فيكون المعنى بذلك حركتين فكريتين تقوم على ثنائية المفهوم والتأويل.

-IIحدود المعنى :

لتحقيق حدود المعنى وضبط مفهومه، نودّ الوقوف عند مصطلحين متقاربين في دلالتهما مع هذا المصطلح وهما: المفهوم والتأويل.

-1المعنى والمفهوم:

يشير أغلب الدّارسين إلى أنّ حدَّ كلّ من المفهوم والمعنى يتقاربان، وقد أشار صابر الحباشة إلى ذلك بعد أن استقصى بعض الآراء المعاصرة، وتلك القديمة مستشهدا برأي التّهانوي من علماء القرن الثاني عشر الهجري، الذي يرى بمطابقتهما لأنّ كلاّ منهما «هو الصّورة الحاصلة في العقل »( )، أي الصّورة الذّهنية المقصودة من اللّفظ، غير أنّهما يختلفان باعتبار القصد والحصول، فمن حيث إنّها تقصد باللّفظ سمّيت معنى، ومن حيث إنّها تحصل في العقل سُمِّيت بالمفهوم، ويشرح صابر الحباشة ذلك بقوله أنّ كليهما صورة عقلية، غير أنّ المعنى مرتبط باللفظ، في حين أنّ المفهوم حاصل في العقل لا يتعدّاه.( )

-2المعنى والتّأويل:

يؤكدّ الدارسون أن المعنى يتصل اتّصالا وثيقا بالتأويل، ومردّ ذلك إلى كونه لا يتحقق إلاّ ضمن سياق من السّياقات العلمية أو الشّخصية: أي سواء وفق منوال تأويلي نسقي، أو عبر رأي ذاتي فردي. لذلك كثيرا ما تتصل كلمة (المعنى) ببعض النّعوت منها : الخفيّ، الضّمني الظاهر، الباطن، الحرفيّ، النفسي، وهذه جميعها تتّصل بالمنطق التأويلي للمتكلم .

والتّأويل «عملية فكرية تستهدف بلوغ المعنى » ( ) فهي إذن آلية عقلية تستدعي قرائن مقالية ومقامية للوصول إليه وبلوغ منتهاه. فتأويل نصّ ما مرهون بمتابعة حركة المعنى نحو المرجع الخارجي الذي يساعدنا على التّأويل، ومنه نستطيع بعث العلاقة القائمة بين الإنسان والكون (العالم)، والتي لا يمكن فهمها إلاّ عبر التأويل. فالمعنى بهذا يكون متّفقا عليه، بينما يكون التّأويل تصوّرا خاصّا أو تفسيرا فرديا غير متّفق عليه وقابل للمناقشة.فقولنا مثلا: رأيت أمس دائرة مربّعة الشكل يؤوّل على أنّ المتكلم مجنون مثلا، أو كلامه هذا دلالة على حمقه.

نستنتج ممّا سبق ذكره أن مصطلح (المعنى) كثيرا ما يلتبس بالمصطلحات التي تقترب منه، كما مرّ معنا، مما يزيد تعقيد الموضوع المشار إليه، ويجعل من (المعنى) عصيّا عن الإمساك به، فالقول الواحد قد يسند إليه أكثر من معنى، ممّا يوقد إمكانية الحديث عن سوء الفهم، وعن التّأويل، وعن تعدّد المعاني بتعدّد

المقامات، وعن الاشتراك الدّلالي وعن تطوّر المعنى وتغيّره عموما وتخصيصا، سموّا وانحطاطا حق يقة ومجازا، وهذا ما سنوضّحه في خصائص المعنى.

III-**خصائص المعنى** : من خصائص معنى الكلمة نذكر الآتي:

1-**التبدّل والتغيّر**: إنّ معنى كلمة ما لا يبقى على حاله، بل سرعان ما يتحوّل من مفهوم إلى آخر بشكل عفوي لفترة زمنية طويلة، عبر نقل المعنى أو عبر طرق أخرى «لذا فإن المعنى في غالبية الحالات يتغيّر ويتحوّل، وإذا كانت كل كلمة هي مجموعة من التّداعيات، فإنّه يكفي لتَدَاعٍ واحد أن ينمو ليتعدّى على المعنى وينتهي إلى تشويهه وإزاحته ومن ثمّ يعمد إلى الحلول مكانه.( )«

ويرتبط تغيّر المعنى بالعوامل الاجتماعية والتاريخية والسّياسية؛ لأنّ التاريخ والثقافة والسلوك وطرق العيش تأتلف جميعا لتكوّن المجتمع البشري، فالدين الإسلامي عندما ظهر في حياة العرب ، أثّر في عدد كبير من المفردات، فأمات كلمات متعددة لنفور الدّين الجديد منها، وأحدث كلمات جديدة لفظا ومعنى، من ذلك كلمات: الخليفة، بيت المال، أهل الذمة، وكلمات أخرى خصّصت معانيها بعد تعميم مثل: الحج، والصّلاة والصّوم.

عبارة (**طول اليد**) مثلا في العهد الإسلامي كانت مرتبطة بالكرم، فممّا يروي أن نساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد سألنه : «أيُّنَا أسرع لحاقا بك يا رسول الله؟ » فقال: «أَطْوَلُكُنَّ يَدًا»، بمعنى أكرمكن، ولكنّ طول اليد في المفهوم الحديث يعني الاختلاس والسّرقة . ومن الأمثلة أيضا "العقيقة" كانت تطلق على الشَّعر الذي يولد به الولد، ثمّ تطوّرت دلالتها لتعبّر عن الذبيحة التي تذبح في الوليمة عند حلق ذلك الشّعر.

"**الأسرة**" كانت تطلق على الملوك من سلالة واحدة، يتعاقبون على الملك بالوراثة، ثم تغيّرت دلالتها لتطلق على الأفراد الذين تربطهم قرابة الدّم.

وتعدّ الحاجة أكثر الأسباب الخارجية التي تؤدي إلى ظهور ألفاظ جديدة بدلالات جديدة، أو ألفاظ قديمة بدلالات جديدة عن طريق التحوّل أو النقل، أو المجاز، فقد أضيفت كلمة (تلفون) إلى كلمة هاتف، والثلاجة إلى البرّادة، و(مدية) إلى السكين وغيرها .( )

ويدخل في هذا السّياق الاقتر اض اللّغوي بكلّ أنواعه، من ذلك كلمة (Mouton) الفرنسية التي تطلق على الخروف مطلقا، بينما الإنجليزية خصّت (Mutton) للدّلالة على قطعة اللّحم، بينما استعملت (Sheep) للدلالة على الخروف.

كما أنّ معنى الكلمة ينتقل تعميما وتخصيصا عبر الأزمنة؛ نمثّل لذلك بكلمة (الهأس) فقد كان معناها الأوّلي (الحرب) ثم أصبحت تطلق بعد التّعميم على كل شدّة من أمر . وكذا كلمة (جريدة) انزلق معناها عبر الأزمنة ليدلّ على صحيفة يكتب عليها بعدما انتقل معناها من الأصل الذي يعني سعف النّخيل، ونوضّح ذلك في الخطاطة الآتية:

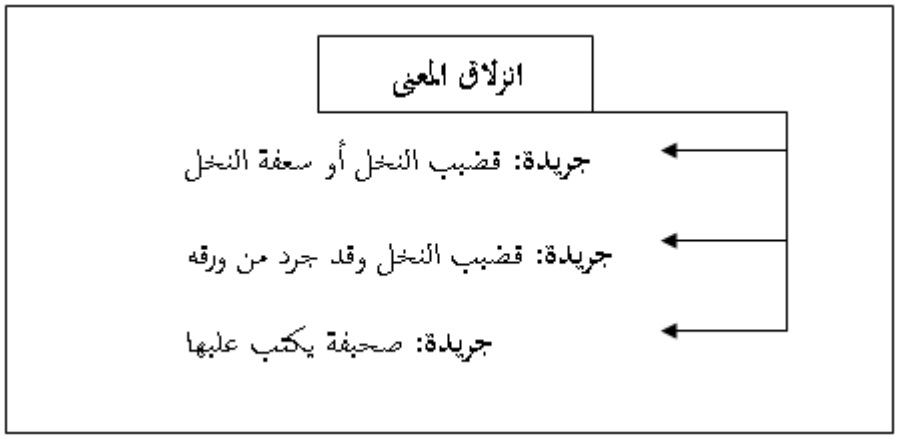

فالحافز لتغيير المعنى في الخطاطة أعلاه هو المشابهة بين تجريد النّخل من ورقه، وجرد الأخبار أي تِعدادها، حيث كان الجرد بمعنى نزع الشّيء وإزالته، لينتقل إلى دلالته على إضافة الأخبار والمعلومات إلى الصحفية، وهو انتقال بالضّد مجازيا، ممّا عل المعنى ينتقل كلّيا من صورة محسوسة إلى صورة معنوية من مجال "الجريدة" الدّالة على قضيب النخل، إلى مجال (الجريدة) الدالة على الصّحيفة التي تتناقل الأخبار . «لذا هناك انتقال يتم داخل حيّز التّداعيات الدّالة، فكلمة (الجريدة) انتقلت من خانة القيمة التعبيرية (أي تلك الصّور الاستطراد ية التي تواكب المعنى) لشيء أوّلي، وهو قضيب النخل مجرّد من خُوصِهِ إلى معنى أساسي لشيء آخر وهو الجريدة–الصحفية.

وكلمة قضيب النّخل انتقلت من خانة المعنى الأساسي إلى القيمة الاجتماعية السّياقية »( ). وهذا التّحوّل الدّلاليّ يُعزى أساسا إلى تحوّل التفكير الإنس اني وخروجه من خانة المحسوسات إلى خانة المجرّدات .

وهناك نوع من التغيّر في المعنى يصدُق على الكلمات التي كانت دلالتها تعدّ في نظر الجماعة (نبيلة) رفيعة "قوية" نسبيا، ثم تحوّلت هذه الدّلالات فصارت دون تلك مرتبة أو أصبح لها ارتباطات تزدريها الجماعة.

ومن الكلمات التي كانت دلالاتها قوية أصلا ثم هان شأنها نسبيا، تهديدنا الخصم عند الشجار بالقتل، وكسر الرّجلين، ولا شيء من ذلك يحدث، ولا يعتبر هذا في نظر القضاء مثلا مشروعا في القتل حقا.

و فُقِدَت في المقابل كثير من ألقاب الطّبقة العُليا ما كان لها من بريق نتيجة تعلّق ها بالنظام الإقطاعي وبالسّيادة بوجه عام، وشاع إطلاق الكثير من هذه الألقاب على الأشخاص العاديّين وذلك مثل : Lady، Sirفي الإنجليزية، Madame، Monsieurفي الفرنسية، Frau, Herrفي الألمانية، Senora, Senorفي الإيطالية .( )

ومن نماذج الكلمات التي تَسَامت دلالاته اكلمة (بيت) حيث في اللغة العربية انتقلت من الدّلالة على المسكن المصنوع من الشعر إلى البيت الكبير الضخم، المتعدّد المساكن، كذلك كلمة (الرّسول) انتقلت من المهنة العادية وارتقت إلى رسالة ربانيّة، وكلمة (الدّولة) كانت تعني تقلّب الحال والزمان ثم أصبحت تطلق على السّلطة العليا في بلد ما. وكلمة (الآية) أيضا كانت تعني العلامة، الآن هي جزء من السّورة القرآنية التي تنتهي بفاصلة

ب–التحوّل المقامي وتحوّل المعنى : للمعنى علاقة قوية بالمقام الذي يقال فيه اللّفظ؛ فمقام الفخر غير مقام المدح أو القدح، وهما يختلفان عن مقام الدّعاء أو الاستعطاف أو التّمني أو الهجاء، وهلم جرّا، لهذا قال البلاغيون «لكلّ مقام مقال» وهذه إشارة ضمنة منهم إلى أنّ تعدد المقامات يؤدي إلى تعدد المقالات في نبرها وتنغيمها وأساليب نطقها، وهذا بالضرورة سيؤدّي إلى تحوّل الملفوظات دلاليا ويصحب ذلك تحول في المعنى ومنه فإنّ المعنى يعتمد على صورتين له هما:( )

أ–المعنى المقالي: وهو مكوّن من [المعنى الوظيفي+ المعنى المعجمي؛ القرائن المقالية].

ب–المعنى المقامي: وهو مكوّن من [ظروف أداء المقال؛ يشتمل على القرائن الحالية].

ونظرا للأهمية القصوى للمقام، فقد اعتمده المفسّرون مطيّة لفهم القرآن الكريم، عبر تركيزهم على أسباب النّزول والظروف المحيطة بالنّص الحكيم عند نزوله على سيّد القوم محمّد ، وكي نبسط علاقة المقام والمقال بالمعنى نمثّل له بالآتي:( )

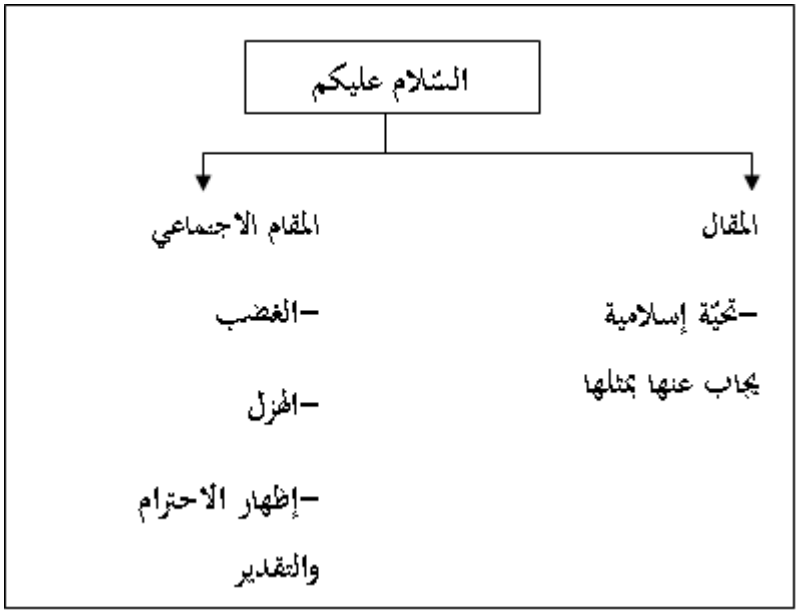

فتحية الإسلام (السّلام عليكم) انتقلت من دلالتها المتعارف عليها عند جموع المسلمين، إلى دلالات متعدّدة تبعا للمقامات الاجتماعية، التي تفرض تغييرات في نغمة العبارة، فتنتقل دلالتها إلى الغضب عند اليأس من إقناع المخاطبين، وإلى الهزل عند الدعابة، وإلى إظهار الاحترام لمن نبجّله، وإلى الاقتناع عند الحجاج وتقديم الأدلّة، وهذا يبرز لنا علاقة تحوّل المعنى بتغيّر المقامات.

ومثال آخر لذلك عبارة (يا سلام !) فالمعنى الوصفي لها أو المقالي هو مناداة الله سبحانه وتعالى، غير أنّ المقامات الاجتماعية تحيلنا على دلالات أخرى كالتّأثر، والسّخط، والطّرب والتّوبيخ، والإعجاب، والتلذّذ تبعا للنّغمة التي تصحب نُطق العبارة.

-IIIIأنواع المعنى:

-1المعنى المعجمي : تتّفق الأدبيات اللّسانية قديما وحديثا على أنّ للمعنى صورا متعددة فقد يكون معجميا ويكون سياقيا؛ والذي يهمنا هنا هو أنّ معاني الألفاظ لها دلالة معجمية، «وهذه الدّلالة نابعة من المستوى الذّهني الذي يكيّف التقاطنا للتجربة فيعبّر عنها في اللغة »( ) . فكلّ وحدة معجمية لها معناها العام الذي يحدّد مفهومها المشترك، كما قد يكون لها بالموازاة المعنى السياقي الذي تتعدّد به دلالات ومعاني هذه الوحدة اللسانية.

لقد ظهر فرع لساني جديد يهتم بالمعنى المعجمي أطلق عليه «علم الدّلالة المعجمي يعني «بالمعاني الحرفية والمستقلة عن سياق الكلمات، أي بالمعاني المختزنة في المعجم العقلي »( )، يقودنا هذا إلى القول بأنّ المعنى الفعليّ الذي يلتزم بمقصدية المتكلّم يختلف تماما عن ا لم عنى المعجمي (الحرفي) الذي

من خصائصه الثّبات والعموم، وهي مختزنة بشكل دائم في المعجم العقلي للأفراد، ولا تنشأ المعاني الفعلية إلاّ في سياق معيّن، وليس مفردة بمعزل عن سياقها ومقاماتها.

وفي مواقف كلامية محدّدة يكون لمنطوقات لغوية معيّنة معانٍ إضافية ناتجة عن الموقف، بالإضافة إلى دلالتها، ولنا في ذلك أمثلة كثيرة سنذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

المثال 1: يقول فولتير: حين يقول دبلوماسيّ «أجل» فإنّه يقصد "ربّما"، وحين يقول: "ربّما" فإنه يقصد "لا، وحين يقول: "لا"" فإنّه لا يكون دبلوماسيا ( ). يحيلنا هذ النّموذج على تعدّد دلالة المنطوق تبعا للمكانة الاجتماعية التي يحظى بها هذا الدّبلوماسي، والتي تخوّله إلى أن يكون حذرا في استعمال لغته، كما عليه أن يكون مراوغا بامتياز لتوصيل أفكاره، وإلا سقطت عنه صفة الدبلوماسي.

المثال 2: لنلاحظ معا الشّواهد القرآنية الآتية:

[وَضرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً] [النحل:112]

[إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا] [البقرة: 26]

[وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آ بَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ] [النور: 31]

[فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا] [الكهف:11]

[فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ] [محمد:4]

[إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ] [آل عمران: 156]

إنّه من خلال هذه النماذج القرآنية بمكننا الخروج من حقل المعنى المعجمي، الذي تكون فيه لفظة (ضرب) مرتبطة لغويا بقرع جسم بآخر، كأن نقول ضرب البعير بعصا، غير أنّ هذا المعنى سرعان ما يزداد تجلّيه في السّياق، فينطلق من الدّلالة المعجمي ة ليتّسع في مجال الدّلالة السّياقية؛ ففي الآية الكريمة من سورة النحل[وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا] جاءت بمعنى (جعل)، أما في سورة النّور فمعناها (فَلْيَشْدُدْنَ) وضع الخمر على الجيوب، لينتقل بنا المعنى نحو المجاز في سورة الكهف [فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ] كناية عن الإنامة، لأنّ النّوم الثّقيل يستلزم عدم التّسمّع .( )

أمّا في قوله تعالى في سورة محمّد تدلّ على القطع بالسّيف، بينما الضرب في الأرض الوارد في سورة آل عمران فتعني مطلق السّفر، والسّفر سيرا على الأقدام يتطلّب إيقاع الأرجل بالأرض وملامستها، وهذا فيه شيء من المعنى المعجمي الذي أشرنا إليه سابقا، بينما المعاني السّياقية في آيات الذّكر الحكيم فقد ربطت دلالات الوحدات المعجمية بسياقاتها، وهذا ما يسمّى عند فيرث "(firth) تسييق الوحدة المعجمية.(Contextualisation) "

إنّ فضاء الدّلالة يزداد تدقيقا مع المعنى ال سّياقي، بينما يزداد عموما في نظيره المعجمي، وحتّى نتبيّن خصوصيات المعنى المعجمي نوجزها في النقاط الآتية، كما وضّحها الباحث عبد الرّحمن طعمة :( )

-المعاني المعجمية يعبّر عنها عامّة بواسطة مفردات اللّغة المتاحة التي يمكن وصفها بشكل جيّد من خلال التعريفات ا لمعيارية في القواميس.

-تنقسم المعاني المعجمية إلى قسمين: مسانيد دلالية، ومواضيع دلالية؛

المسانيد الدّلالية: هي معاني المفردات التي تعيّن الأحداث والكيانات التي تحوي مشاركا واحدا على الأقل: مثل الأفعال، الصفة، الظرف، الحال...

المواضيع الدّلالية: هي معاني ا لمفردات التي تعيّن كيانات لا تحتّم بذاتها أيّ مشارك؛ مثال ذلك أسماء الأعلام والذّوات مثل: (محمّد، طماطم، جبال، رمل).

-كما تكمن أهمية المعنى المعجميّ في استجلاء الدلالة السّياقية عبر تحديده لمكوّنات المعنى العامة القابلة للتّحويل داخل النّص . ويتمظهر ذلك عبر تدقيقها، فما كان للمفسّر مثلا أن يفسّر لفظتي (البثّ-الحزن) في قوله تعالى :قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [يوسف: 86] فالبثّ لغة: هو الهمّ الشديد الذي لا يستطيع صاحبه حمله، بينما الحزن هو ا لغِلْظَة والخُشُونة؛ فهو غليظ يأخذ باللّب ويتأبّ على السّلْوَان ( ) ، فالعودة إلى المعنى المعجمي هو الذي يبيّن للمفسّر أنّ العطف في الآية الكريمة هو عطفُ تغاير لا عطفَ ترادف، حيث جمع بينهما في الآية ليعبرّ عن ألم وحزن يعقوب عليه السّلام القديم، وحزنه الجديد.

الإحالات:

. بالمر: علم الدّلالة، المصدر السّابق، ص 14

لالاند، أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، وإشراف أحمد عويدات، منشورات عويدات، .بيروت–باريس،

والأكثر استعمالا هو (image) يوظف مصطلح (خَيْلَة) وجمعه (خَيْلَات) مقابلا عربيا للمصطلح الفرنسي–(*) .مصطلح (الصّورة/ الصّور)

.صابر الحباشة: تحليل المعنى مقاربات في علم الدلالة، دار الحامد للنشر، عمان–الأردن،

ينظر: التّهانوي، محمّد علي: موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون، تقديم وإشراف: رفيق العجم، تحقيق: علي .دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت–لبنان،

)ينظر: صابر الحباشة: تحليل المعنى مقاربات في علم الدلالة، المرجع السّابق،

.نسيم عون: الألسنية محاضرات في علم الدلالة، دار الفارابي، بيروت–لبنان، ط1ن 2005م،

..ينظر : محمد علي عبد الكريم الرّويني: فصول في علم اللغة العام، دار الهدى، عين مليلة، ،

.محمود السّعران: علم اللغة؛ مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت،

.للتوسّع ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة،

ينظر: طالب محمد إسماعيل: مقدّمة لدراسة علم الدّلالة في ضوء التطبيق القرآني والنّص الشعري، دار كنوز المعرفة، عمان–الأردن،

مونيكا شفارتس _ ( )عبد الحميد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، .وجينيت شور: علم الدلالة، المرجع السابق، ص 34

.بنظر: طالب محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص 159–160

ينظر: عبد الرّحمن طعمة: توظيف علم الدلالة المعجمي في حقل التفسير القرآني–مقاربة تحليلية في علم الدّلالة التفسيري، دار كنوز المعرفة، عمّان–الأردن، ط1.

المحاضرة السّادسة

التّعبيرات الاصطلاحية

يعدّ التعبير الاصطلاحيّ Idiomatic Expression واحدا من أهمّ البنى التّركيبية الموظّفة في اللّغة العربية قديمها وحديثها، إذ يتميّز بصيغته التّركيبية الثابتة مع ثبات دلالته. فهو تعبير متداول بين أفراد الجماعة اللّغوية الواحدة، كما يمثّل رمزا لغويّا يعبّر عن مجموع خبرات الشّعوب وثقافاتها، ومظهرا من مظاهر الثّراء اللّغوي .

إذ يشكّل التعبير الاصطلاحي (Idiom) بنية ثابتة في المتن اللّغوي العربي؛ إذ ينتمي إلى نوع من أنواع المصاحبات اللّغوية (Lexical Combinations) ذات الأهمية في توسيع المعجم الذهنيّ لمتكلميّ اللّغة العربية، ولعلّ أشهرها الأمثال (Proverbes) والمتلازمات اللّفظية.(Collocations)

والمصحابات اللّغوية هي تلك الارتباطات الاعتيادية لكلمة مع كلمات أخرى تلازمها، شكّلت في تراثنا اللغوي العربيّ محورا هاما من محاوره عند مجموعة من اللّغويين على رأسهم ابن السّكيت (ت 244هـ) في إصلاح المنطق، وابن فارس (ت 395هـ) الذي أفرد بابا في كتابه "الصّاحبي" بتسمية (المحاذاة) (*)، كما أنّ أبا هلال العسكري (ت 395هـ) من أعلام القرن الرابع الهجري جاءنا بمصطلح (التّلازم اللّفظي) قاصدا به التعبيرات الاصطلاحية التي تحافظ على بنيتها الشّكلية والدّلالية في السّياقات المختلفة.

كما جاء مصطلح (التّعبير الاصطلاحي) عند القدماء تحت تشكيلات مصطلحية أخرى منها: (القول السائر، القول المأثور، العبارة المأثورة)، وقد تمّ ذكره ضمن معجم لغويّ لتبيان سياقات توظيفه، أو شاهدا يعزو أفكار الأدباء واللّغويين، ولعلّ أكثر المدّونات اهتماما بتوظيفه نجد: مجمع الأمثال للميداني، جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري، البيان والتّبيين للجاحظ، الكامل للمبرّد، المزهر للسّيوطي، فضلا عن بعض المعاجم كلسان العرب وتاج العروس.

أولا: تعريف التّعبير الاصطلاحي:

تشير أغلب الدّراسات إلى أنّ التّعبير الاصطلاحي هو «تصاحب وحدتين معجميتين لغويتين أو أكثر. ويشكّل هذا التّصاحب نصّا ثابتا قائما بذاته، يتّسم بالإيجاز، وبساطة التركّيب، وسهولة اللّغة، وقوة الدّلالة، ويستخدم استخداما مجازيا.( )«

وجاء في تعريف آخر قولهم: هو «عبارة تتجاوز معناها الدّالة عليه في اللّغة أو في ظاهر التركّيب إلى معنى آخر بلاغيّ اصطلاحيّ يتحصّل بطريقة المجاز أو بأسلوب التّعبير الكِنائي.( )«

يشير التّعريفان السّابقان إلى أهمّية المدلول المجازي في التّعبير الاصطلاحي، إذ يتجاوز المعنى الأوّل إلى المعنى الثاني الخفيّ، كما تتحدّد وظيفة هذا التّعبير بتزيينه الكلام، وإكسابه غنى وقوة في التّأثير على المتلقي، غايته التّلميح دون التّصريح، عبر اختياره لتعبيرات غير مباشرة واستبدالها بتعبيرات مباشرة، يتميّز بالإيجاز، وبساطة التّركيب، كما أنّه يوضع على هيئة تركيبية واحدة غير قابلة للتّقديم أو التّأخير، أو استبدال كلمة بأخرى وهذا ما يعزّز ثباته على صورة واحدة لا يمكن تعديلها.

كما أنّ للمواقف دورا مهمّا في تعزيز المعنى المجازي وخروجه عن إطار المعنى الحرفيّ للتركيب؛ فقولهم مثلا: «حُشِرَ فِي الزَّاوِيَةِ» يحمل دلالتين( )؛ إحداهما تعني أُلقي القبض عليه، وهي تحمل المعنى الحقيقي للقول، وثانيهما تعني الاعتراف وعدم الإنكار وهذا تعبير مجازي من باب الاتّساع .

فالتعبير الاصطلاحي إذن تعبير كِنائي لا يخضع لمقياس المعنى القريب، فهو يتأسّس دلاليا على المعنى البعيد النّاتج من التعبير القالبيّ، والعلاقات القائمة بين مكوّناته الثّابتة. وحسب الدّراسات المعاصرة للباحثيْن "Bell" و "Borrow" فإنّ للعبارة الاصطلاحية قالبا ثابتا يتضمن قائمة فكرية وعقلية من المتكلّسات التي تنطبع بشكل معجميّ خاص( )؛ أي أنّ تأويل العبارة الاصطلاحية يأتي تلقائيا من التّسلسل الخطّي والبراغماتي التّداولي له، مما يسهّل على المتلقي الوصول إلى مدلول الخطاب وفحواه.

ومن الدّارسين من يُقابل مصطلح التّعبير الاصطلاحي بمصطلح "التعابير الأدبية المسكوكة" أو "الإِكْلِشِيهَات" أو "الأكلشيهات" للدّلالة على المعنى الذي يتحقّق من عبارات متماسكة ثابتة الصّيغة اللّفظية تعبرّ عن معنى خاصّ متّفق عليه، وهذا لا يتحقق إلاّ في إطار اجتماعي وثقافيّ واحد، يعكس صورة من صور التّجارب الإنسانية في حقبة زمنية محدّدة، أو منطقية جغرافية مغلقة، وسرعان ما يتوسّع مدى هذا التعبير ليكتسب شُهرة في مناطق أوسع ليصبح وحدة لغوية متكاملة تتداولها المجتمعات وتتوارثها الأجيال.

من أمثلة التعبيرات الاصطلاحية قولهم: جَاءُوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَصَوْبٍ؛ أي قدموا من كلّ جهة وناحية( ). ومنه قوله تعالى : لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [النحل:7]. فعبارة "شقّ الأنفس" تعني بصعوبة ومعاناة، وقوله تعالى :وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ [الإسراء: 24] أي: تذّلل لهما رحمة بهما، فهذه المعاني المستقاة من الأمثلة أعلاه هي معاني جديدة قدّمت دلالة موحّدة من مجموع دلالات جزئية. وحتّى يتسنّى لنا معرفة هذه التّعبيرات الاصطلاحية أكثر سنورد بعضا من خصائصها.

2-خصائص التّعبيرات الاصطلاحية:

أ-ثبات القالب الاصطلاحي: عناصر التّعبير الاصطلاحي من ذوات الرّتب المحفوظة التي تجيء على صورة واحدة في قالب تركيبي منتظم، لأنّه بنية لغوية ثابتة تتوارثها الأجيال بالحفاظ على صورتها الأولى التي جاءت عليها.

وقد أشار بعض الدّراسيين إلى تسمية هذا النّوع واللّون من الثّبات في التّشكيل التّركيبي مصطلح [التّكلس]؛ أي أنّ التّعبير الاصطلاحي هو تشكيل بنائي ثابت لفظا ومعنى يتمظهر في لغة الخطاب تبعا للسّياق الذي يوجّهه، كما أنّه يقوم على فكرة الاقتصاد اللّغوي والتّعبير عن الفكرة بأقل قدر من الملفوظات، كما أنّه يتميز بخضوع عناصره لقيود توزيعية صارمة تمنعها من التّبادل فيما بينها على عكس المتلازمات اللفظية التي يمكن استبدال مفرداتها بأخرى فنقول: "اغتنم الفرصة" أو "انتهز الفرصة."

لا تفوتنا الإشارة إلى أنّ هذه "الأمثال الجامدة" تسمّى أيضا الصّيغ القارّة Idioms بمعنى أنّها غير قابلة للتغيير، فهي تحافظ على صيغتها كما هي؛ فهذه الأمثال والصّيغ الجامدة هي: «وحدات معجمية أوّلية؛ ومن المفيد أنّها وإن كانت تقوم في أكثر من لفظ فهي تُظهر إلى حدّ ما نوعا من الاتّساق الدّاخلي ممّا نتوقعه من الألفاظ المفردة»( ) ،فالبناء الشّكلي لهذه الوحدات المركّبة غير قابل للتّعديل أو التّغيير وهذا لدواعي دلالية ثابتة، ضمن صياغات منتظمة تقدّم لنا معًا عبارة صريحة الدّلالة، بعيدا عن التّعقيد والغموض .

ب – التّعبير الاصطلاحيّ صورة استعارية: يستجيب التّعبير الاصطلاحي من ناحية أخرى إلى الاستراتيجية الاستعارية التي كثيرا ما تؤوّل تأويلا واحدا غير قابل للتّعدد؛ حيث يتجاوز المعنى الظاهري للخطاب بالمعاني الظّاهرة ولكنها تحدّدت بمعاني إضافية، وذلك عن طريق استبدال مكوّن أو أكثر من عناصرها بآخر يحمل دلالة مكثّفة تشيع في مجتمع ما.

فالقائل للتّعبير الاصطلاحي الفرنسي ( )"donner sa langue au chat" فترجمته الحرفية «أن تعطي لسانك للقطة» غير أنّ هذا المعنى الظاهر يقابله في الباطن استعارة جامدة للدّلالة عن موقف محدّد وهو «الإعراض عن الردّ والكلام» خصوصا إذا كان الكلام مُلَغَّزًا، لهذا عُدّ هذا النّوع من الاستعارات عند بعض الدّارسين شبه فصيحة، وشبه ميّتة، فهي من الوحدات المعجمية الصّغرى ذات الحمولة الدّلالية القابلة دوما للمناقشة خصوصا.

ج- ثبات الدّلالة: أشار بالمر إلى مسألة أخرى بخصوص التّعبيرات الاصطلاحية فيقول: «فالعبارات على النّحو السابق تعدّ دلاليا (semantically) وحدات فردية (single units) ولكنّها ليست وحدات نحوية مفردة»( ) ومسّوغ قوله هذا هو عدم قدرتنا على تقسيم تلك التّعبيرات دلاليا (semantic division)وإن فعلنا ذلك فسيكون تقسيما مشوّها، ولن نستطيع بذلك أن نحافظ على التّوازن بين الشّكل والمعنى، ذلك أنّ الصّورة الذّهنية للتركيب هي وحدة من النّاحية الدّلالية، وإن بدت متعددة من ناحية تركيبها وفي هذا يقول: «البحث عن المعنى مثله مثل البحث عن كرة مفقودة في مرجة خضراء.( )«

د-صعوبة ترجمة التعبير الاصطلاحي: يصعب على الدّراسيين ترجمة التّعبيرات الاصطلاحية لأنّها لصيقة بالبيئة التي أُنتجت فيها، كما أنّ هذه القوالب الاصطلاحية مركبة تركيبا يتناسب وقواعد اللغة التي أنتجته، ممّا يصعّب على المترجم الحفاظ على المعنى الحقيقي المراد في موقف معين، ممّا يسبّب إشكالا في إفهام المتلقي الذي لا يستوعب ثقافة المجتمع الذي وضع هذه التراكيب للتعبير عن معان خاصة ترتبط به، وهنا تتجسّد خصوصية هذه التعبيرات في مستواها الدّلاليّ .

فلو نأخذ مثلا التّعبير الإنجليزي (kick the Bucket) :وترجمناه إلى العربية حرفيا: «ركل الدّلو» لما تبيّن لنا المعنى المقصود من هذا السّياق، ما دمنا التزمنا بالترّجمة الحرفية لوَحداته اللّغوية، بينما لو تواصلنا مع أهل هذه اللّغة لتيسّر لنا معرفة المعنى المراد وهو (يموت).

أما التّعبير الاصطلاحي العربيّ (أَلْقَى نَظْرَةً عَلَى) فهو من التّعبيرات المستحدثة في العربية المعاصرة يوظّف للدّلالة على التمعّن في الشّيء والشّخص، وهي الدّلالة ذاتها التي تقول بها معاجم التّعابير الإنجليزية "Take a look (At someone Or something"فقد جاء في تحديد هذا الاصطلاح الآتي:

«Take a look (at someone or something) to examine (Briefly someone or Something»( )

أمّا التّعبير الاصطلاحي «يُعْطِي الضَّوْءَ الأَخْضَر» فهو كناية عن الإذن بالبدء في عمل ما( )،

وهو يقابل التعبير الانجليزي (green light) الدّال على البدء في مشروع ما :

» permission to go ahead with a project ( )«

وتتقاطع الدّلالة أيضا في التّعبير الاصطلاحي الإنجليزي (Again and again) :( )مع نظيره العربي « دَائِمًا وَأَبَدًا » في استعمالهما المقامي والسّياقي، حيث يدلان على تكرار الشّيء عدّة مرّات (Repeatedly)دون كلل أو ملل.

بينما يلتمس المتلقّي تبادلا ثقافيا بين العربية والفرنسية في تشابه تعبيراتهما الاصطلاحية، ممّا يؤكّد أنّ إحداهما أخذت عن الأخرى، ولنا في ذلك بعض التعبيرات المتشابهة بين الثقافتين المختلفتين من أمثلتها قول الفرنسي( ) : «la fin justifie les moyens»

ويقابلها في العربية (العِبْرَة بالنِّهَايَة) أي أن خاتمة العمل هي الأهم.

ومن التّعبيرات أيضا( ) «tout ce qui Brille n’est pas or» :ويقابلها في العربية «لَيْسَ كُلُّ مَا يَلْمَعُ ذَهَبًا» للدّلالة على خداع المظاهر وعدم تصديقها، لأنّها قد تعكس سلبيات لا يمكن التّنبؤ بها من أوّل نظرة.

أمّا قولهم: «لاَ تُؤَجِّلْ عَمَلَ اليَوْمِ إِلَى الغَدِ» فهي الصّورة المطابقة للتّعبير الفرنسي:

« Ne remet pas au lendemain ce que tu peux faire le jour même »

( )

فكلاهما يدعو إلى عدم الكسل، وللاجتهاد في إنهاء الأعمال في وقتها، لأن تأجيلها سيؤدّي لا محالة إلى تراكمها، ومن ثمّ عدم إنجازها مطلقا.

أمّا قولنا في العربية (القَطْرَةُ الَّتِي أَفَاضَتْ الكَأْسَ) فهو المقابل الموضوعي للتّعبير الاصطلاحي الفرنسي) « la goutte d’eau qui fait déborder la vase »(للدلالة على عدم الاحتمال والثورة في مواجهة الأشياء التي تزعجنا وتفاقمت لدرجة الانفجار في وجهها.

ونختم بالتعبير الاصطلاحي: «لا نار بلا دخّان» والذي يقابل التعبير الفرنسي « il n'ya pas de fumée sans feu »( ) للدلالة على ظهور الشّيء رغم السّعي في إخفائه. والحقيقة ظاهرة جليّة، حتى ولو اجتهدنا في إخفائها، فهي تتجلّى بوضوح في النهاية.

والتّعبيرات الاصطلاحية ليست واحدة في كل اللّغات من ناحية تركيبها، فاللّغة الإنجليزية مثلا تشتهر بنمط من التّعبيرات التي تقوم على تركيب وحدتين تسمّى "العبارة العقلية (phrasal verb) ( )" وهي المكوّنة من [فعل+ظرف] بحيث لا يمكن التنبّؤ به من معنى كلّ من الفعل والظرف منفصلين، مثال ذلك.(put down /give in/ make up) :

كما يوجد نمط آخر مكوّن من [فعل+حرف] مثال ذلك (look after) :بمعنى يهتم به، أو يعنى به، وهذا اللّون من التّعابير مفقود في اللّغة العربية.

ويوجد بجانب العبارات الاصطلاحية نوع آخر يسمى "العبارات الاصطلاحية الجزئية (partial idioms) " « وفيها تتأتى إحدى الكلمات بمعناها العادي (its usual meaning) ، في حين تنهض الثانية بمعنى خاّص مستمدّ من السّلسلة المعيّنة .( ) «(particulier sequence) مثال ذلك عبارة (red hair) فكلمة (hair) وردت بمعناها الحقيقي وهو الشَّعر، بينما (red) أحمر فلم ترد بمعناها المعروف.

وتجدر الإشارة أخيرا إلى أنّ التّعبيرات الاصطلاحية يمكن تقسيمها إلى حقول دلالية بحسب طبيعة تركيبها في اللّغة العربية لعلّ أهمّها( ): التعبيرات المصدّرة بـ (أب وأمّ) كقولهم: ابن أبيه، أمّ الخبائث، التّعبيرات المصدّرة بـ (ذو) و(ذات) كقولهم: (ذو عقل، ذات البَيْن)، وغيرها من النّماذج .

وممّا سبق ذكره نخلص إلى ما يلي:

-تميّزت التّعبيرات الاصطلاحية قيد الدّراسة بثباتها شكلا ومفهوما، غير أنّها تجاوزت دلالتها المركزية إلى دلالات هامشية قريبة من الدّلالة الأولى تبعا لمقتضيات الموقف أو السّياق اللّغويّ.

-انحصرت دلالات التّعابير الاصطلاحية في المجاز أكثر من انحصارها في الحقيقة.

-مثّلت التعبيرات الاصطلاحية وحدات معجمية وتركيبية ثابتة، لأنّها وحدات مخزّنة في ذاكرة الأفراد بوصفها وحدات مقنّنة Codée لا يجب تعديلها.

الإحالات والهوامش:

–(*)معنى "المحاذاة" أن يُجعل كلام بحُذَاءِ كلام، فيُؤتي به على وزنه لفظا، مثل الغدايا والعشايا. وقولهم: أعوذ بك من السّامة واللاّمة، ويسمّى هذا المصطلح بالإتباع عند لغويين آخر .

-ينظر: ابن فارس: الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، المكتبة السّلفية، القاهرة، 1910م،

_ ( )بانا بلال شيباني: التّعبيرات الاصطلاحية ودورها في إعداد المعجم اللّغوي المعاصر، مقال منشور بجامعة تشرين للبحوث والدّراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 39، _ ( )أحمد

-أبو سعد: معجم التّراكيب والعبارات الاصطلاحية العربية القديم منها والمولّد، دار العلم للملايين، ( )

_ينظر: محمد علي الخولي: علم الدلالة (علم المعنى)، دار الفلاح للنّشر والتوزيع، عمان-الأردن، ( )

- د.أ. كروس: علم الدلالة المعجمي السّيمانطيقا المعجمية: تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، المغرب، _

- بلمر: علم الدلالة، ترجمة: أحمد طاهر حافظ، دار الوفاء، الإسكندرية،

( )-Richard A . Spears, PH.D: NTC'S American Idioms Dictionary, third edition; NTC Publishing group, p: 389

-( )أحمد مختار عمر وفريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، Judith-Siefring: The Oxford Dictionary of Idioms, Oxford University Press, New York, second edition

( )-solvie moy : 100 Proverbes Français (les plus courants et leur signification éditer par :Franc parler

( )-op.cit p :12

( )- للتّوسّع ينظر: شهرزاد بن يونس: نحو بناء معجم دلاليّ للتّعبيرات الاصطلاحية في اللّغة العربية-قراءة في التّشكيل والدّلالة، مقال منشور بالكتاب الجماعيّ الموسوم: دراسات في الدّلالة وتطبيقاتها، منشورات ألفا للوثائق، قسنطينة-الجزائر، ط1، 2020م، ص 117-159.

المحاضرة السّابعة

علم الدّلالة وعلم الرّموز (السّيميائية)

تعدّ السّيميائية إحدى الحقول المعرفية المعاصرة الهامّة، التي تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات، لسانية كانت أو غير لسانية، إنّ كلّ مظاهر الوجود اليومي للإنسان تشكّل موضوعا للسّيميائيات؛ ذلك أنّ كلّ ما تضعه الثّقافة بين أيدينا هو في الأصل علامة تُخبر عن هذه الثّقافة وتكشف عن هويتها، فالضّحك، والبكاء، واللّباس، وطريقة استقبال الضيوف، وإشارات المرور، والطّقوس الاجتماعية والنّصوص الأدبية، والأعمال الفنّية، كلّها علامات تدرسها السّيميولوجيا محاولة الكشف عن القواعد التي تحكم طريقتها في إنتاج معانيها .

أوّلا: مفهوم السّيميولوجيا واتّجاهاتها:

ظهرت بوادر هذا العلم على يد اللّسانيّ السّويسريّ (دي سوسير) Ferdinand de Saussure في مؤلّفه المشهور: "محاضرات في اللّسانيات العامّة" إذ يقول: «يمكننا إذن أن نتصوّر علمًا يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية »( ) . مطلقا عليه مصطلح السّيميولوجيا.

« On peut donc concevoir une science qui étudie la vie des signes au sein de la vie sociale ; elle formerait une partie de la psychologie sociale, et par conséquent de la psychologie générale ; nous la nommerons sémiologie ».

فالعلامات بمقتضى هذه المقولة تعني العلامات اللّسانية (كلام-كتابة) وهي المكوّنات الأساسية للتّواصل الإنساني، الذي تلتقي فيه عناصر التواصل السمعي –البصري، ثم لدينا العلامات الأيقونية

» (Iconique)هذا المصطلح يرمز إلى التّواصل انطلاقا من الصّور (images)(في تعارض مع ما هو مكتوب) وهي مهمة جدّا في قضايا العلاقات الإنسانية المبنية على علاقة [صورة/صوت] بينما عناصر التّواصل الشّمّيّ والذوقيّ قليلة الاستعمال نسبيا، كذلك العناصر الحركية واللّمسية، إلا في مجال العلاقات الجنسية .( )«

كما ظهرت السّيميوطيقا كمصطلح ثانٍ مع الفيلسوف الأميركي شارل سندرس بيرس Peirce الذي انطلق من الفلسفة الظاهراتية ليؤسّس (علما شكليا للعلامات)، يكون عبارة عن منطق قائم على الملاحظة التّجريدية لخاصّيات العلامة (...)، ليصل إلى ما ينبغي أن تكون عليه جميع العلامات التي يستعملها العقل العلمي .( )«

وإلى جانب هذين الرّائدين، قدّم (أرنست كاسيرر) Ernest Cassirer في كتابه Essai sur l'hommeالذي ترجم إلى "مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية" مشروعا فلسفيا يبحث القوانين الخاصّة بالأنساق الرّمزية التي يستعملها الإنسان، والتي تمنحه خصوصيته وفرادته بالمقارنة مع الكائنات الأخرى، فقد ذهب إلى أنّ الإنسان يمتلك (جهازا رمزيا) –فضلا عن الجهاز المستقبل والمؤثّر –يجعل حياته تختلف عن الحيوانات اختلافا نوعيا وليس كمّيا فقط، ولذلك فهو لا يخضع لجدلية المثير والاستجابة بشكل آلي وعضوي، لأن هناك دائما بين المثير والاستجابة عملية فكرية بطيئة ومعقّدة .( )

وتجدر الإشارة إلى أنّ (علم العلامات) ظهر قبلا عند اليونان مع أفلاطون (428-348ق.م) الذي بحث في أصل اللغة، وأرسطو (384-322 ق.م) الذي أولى عنايته بالأسماء في كتابه (فنّ الشعر)، وفي ضوء اهتمامات هؤلاء الفلاسفة بالأسماء ودلالاتها فقد ساروا نحو تأويل العلامات المختلفة حتى تمّ التوصّل إلى مثلّث العلامة اللّسانية الذي يتكون من ثلاثة أقطاب [دال+ مدلول+ مرجع]

ومن هنا «خاض الفلاسفة في التّفكير العلاماتيّ، عبر أسس التّأويل الذي يمسّ العلامات المختلفة ولا يبقى في إطار الدلالة السّطحية، ما يَعْبُرُ بالعلامة إلى مستوى التّحليل، من خلال الأنظمة التي تستغل عبرها العلامات» ( )، وهذا ما تمّ تطويره فيما بعد على يد الغرب، وعلى رأس هؤلاء القدّيس أغسطين (354م-430م) الذي طور نظريته في العلامات العرفية (signa data) وربطها بالفلسفة .( )

لقد حاول أغسطين استنطاق العلامات من حيث طبيعتها وأقسامها، مركزا على العلامات العرفية ذات الطابع الاجتماعي والتي أضحت موضوعا لسيميائية القرن العشرين، ذلك ان هذه العلامات قائمة على

قانون يحكمها، مما جعل أفكاره تتلقى فيما بعد بالقبول، وتمثل نقطة ارتكاز هامة ي التفكير العلامات عند دي سوسير بدا ثم بيرس فيما بعد.

كما أنّ التفكير السيميائي كان حاضرا في التّفكير العربي، فقد أورد ابن خلدون (732هـ-808هـ) في كتابه «علم أسرار الحروف» «فهو من تفاريع السّيمياء لا يوقف على موضوعه ولا تحاط بالعدد مسائله، وتعددت فيه تأليف البوني وابن العربي وغيرهما ممن تبع آثارهما» ( )، فعلم أسرار الحروف عند المتصوفة خاصّة فرع من السّيمياء وهي علم بالحروف يتم من خلالها الادعاء بعالم الغيب عن طريق ممارسات عجيبة عن طريق حسابات وتقليبات حرفية لمعرفة الزمن المستقبل. كما أشار في مقدّمته إلى مصطلح (السِّيمِيَاء) وعدّه ضربا من ضروب علوم السّحر والطِّلَّسْمَات، وأشار إلى أنّ جابر بن حيّان هو كبير السّحرة الذين اهتمّوا بهذه العلوم.

مثلما حظيت الدّلائل بأهمية في مجال أسرار الحروف، فقد أخذ التعرّف على العلامات مساره في مجال الكيمياء خصوصا عند (جابر بن حيان) الذي اعتنى بمزج العناصر والحوامض والمعادن والأعشاب، وتحويل المعادن الخسّيسة إلى معادن نفيسة كالذهب والفضة، كما جاء مفهوم السّيمياء متّصلا بالسحر مادام يقوم على مزج القوى التي في جواهر العالم الأرضي، وتوظيفها في فعل غريب هو أميل إلى الشعوذة، كما ألمع إلى ذلك كلّ من ابن خلدون وابن سينا .( )

أمّا مفهوم السّيمياء عند الغرب فقد ارتبط بعلم الأدلة الذي يرجع فيه التّأسيس الفعلي لهذا العلم إلى تشارلز سندرس بورس (1839-م1914) الذي يقول: « أنا، على ما أعلم، الرّائد أو بالأحرى فاتح الغاب، في توضيح وكشف ما أسمّيه بعلم السّيمياء، أي مذهب الطّبيعية الجوهرية والتّنوعات الأساسية للدّلالة الممْكِنَة»( )، فهو أوّل من ضبط المفهوم الدّقيق للعلامة بعد "دي سوسير" متّكئا على فلسفة للكون تقوم على التّجريد والتّعميم عبر منهجه الرّياضي المنطقيّ، الذي أثّر على تفكيره السّيميائي في أحضان الاتجاه "الظاهراتي" (*) الذي ساعد على تقديم سيمياء منطقية تحدّد طبيعة العلامة، وتبحث في دلالاتها ومقصدياتها غير المنتهية في عالم الأزياء مثلا، والوقوف على دلالاتها التّواصلية والثقافية، وهذا شأن كلّ العلامات غير اللّسانية الأخرى كإشارات المرور، والألوان، والرّموز المختلفة، والحركات وغيرها.

ثانيا: علاقة علم الدّلالة السّيميولوجيا :

إن أهمّ استنتاج يمكن تمثيله لعلميْ الدّلالة السّيميولوجيا هو أنّ كليهما يدرس المعنى، غير أنّ علم الدّلالة يركز على البحث في الدّلالة اللسانية بمستوياتها (الصوتية، الصرفية، التركيبة، المعجمية)، كما يهتم أيضا بالدلالة السياقية للعلامات اللسانية فقط، بينما تهتم السّيميولوجيا بالتركيز على البعد الدلالي الذي يتولد عن استعمال شيء محل شيء آخر بخصوص العلامات غير اللسانية على وجه التحديد، كتحديد دلالة اللون الأحمر بالخطر، والميزان للعدالة، الحمامة للسلام، بمعنى آخر المعنى هو حصيلة ما تضيفه الممارسة الإنسانية للوجود المادّي ثقافيا واجتماعيا.

ويبرز هذا التّقاطع بين العلمين من خلال تصوّر بورس للعلامة جاعلا من السّيمياء «صورة لنظام إنتاج الدّلالة، ونمط تداولها، إنها تساؤل حول المعنى وميكانيزمات اشتغاله، وأشكال تجلّيه وشروط إنتاجه»( )؛ فهي بهذا تصوّر استشرافيّ للعالم مادامت العلامة تموت وتحيا، ومع كل ولادة جديدة تولد دلالات جديدة، فالكون في تصوّر بورس يمثُل أمامنا باعتباره شبكة غير محدودة من العلامات.

وإذا كانت الدّلالة منتهية في حقل اللّغة والمعجم، فالدّلالة عند بورس لامتناهية، «فالعلامة لا تحيل على موضوع فحسب، إنها بالإضافة إلى ذلك تكشف عن معرفة جديدة»( )، وهي في ذلك ليست أحادية مكتفية بذاتها، بل هي متنوعة ولا متناهية في الوجود.

وإذا أردنا التماس نقاط التّقاطع بين هذين العلمين وجدنا أنّ المخطط الذي قدّمه الفلاسفة العرب المتقدّمين كالفرابي وابن سينا والغزالي لأنواع الدّلالات، يتقاطع مع بعض أفكار بيرس في تقسيم العلامة، فالدلالة الوضعية عندهم (خارجية) تقابل الدّلالة الرمزية (symbolic) بمفهوم بيرس، والدلالة الطبيعة توافق الدلالة الأيقونية .( ) (Iconic)

ذلك أن الخط ذو علاقة بالصورة الذهنية بتوسط اللفظ أو من دونه، وهذا الأخير يتصل بالأمر الخارجي، فهذه العلاقة الثلاثية التي أوضحها بيرس في مثلّثه تتطابق مع فكر القدماء الذين تنبني العلامة عندهم على هذا التقسيم الدلالي الثلاثي.

كما أن تقسيم العلامة إلى شاهد (Index) وأيقونة (Icon) ورمز (Symbol) يشبه أنواع الدّلالات الثلاثة التي قال بها القدماء وهي الدّلالة العقلية، والدّلالة الطبيعية والدّلالة الوضعية وهو ما توسع فيه الأصوليون بشكل خاصّ .

ولعلّ اهتمام الأصوليين بالعملية التّخاطبية سهّل عليهم معرفة جزئياتها التي حدّدوها في الوضع، والاستعمال، والحمل، والدّلالة، وهذا يتفق مع اهتمامهم باللغة كونها نظام من الدّلالات وليس نظاما

من العلامات، كما ألمع إلى ذلك رائد البحث اللساني الحديث "Ferdinand de Saussure" وتبعا لهذا الطرح فقد ميّز الأصوليون بين نوعين من الدّلالة: الدّلالة اللفظية، والدّلالة غير اللفظية، ولكنّهم لم يلتزموا بهذا الإطار التقسيمي بل زادوه تفصيلا عندما جعلوا الدّلالة اللفظية تنقسم إلى ثلاثة أقسام (وضعية، وعقلية، وطبيعية)، وجعلوا غير اللفظية (وضعية وعقلية) .

فالدّلالة اللّفظية – وهي التي تعنينا في هذا المقام- هي الدّلالة المستمدّة من الأصوات المنطوقة سواء أكانت لغوية كالكلام، أم مجرّد أصوات كالصراخ مثلا. وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام: وضعية، وعقلية، وطبيعية. وحتى نتبيّن الضّبط الاصطلاحي لهذا النوع من الدلالات، سنقف عندها تباعا.

فأما الدّلالة الوضعية فقد قسّمت بدورها إلى ثلاثة أقسام، أوّلها دلالة المطابقة وهي دلالة اللّفظ على تمام معناه الموضوع له كقولك: الإنسان حيوان ناطق. وأما دلالة التّضمين فتتصل بدلالة اللّفظ على جزء من المعنى الموضوع له، كقولك الإنسان (ناطق). أما دلالة الالتزام فهي دلالة اللّفظ على لازم معناه كقولك الإنسان (عالم)) .

إنّ هذه الأقسام الجزئية هي أنواع الدّلالة الوضعية التي تقترب كثيرا من مفهوم الاصطلاحية "Conventional"لأن كلّ ما هو وضعي هو في الأصل اصطلاحي، وهي الدّلالة التي ترتبط بالمعنى المطابق تارة نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء: 2] حيث يحلينا النّص الحكيم على وجوب الاقتصار على زوجة واحدة عند خوف الجور.

وقد ترتبط بدلالة التّضمين، وهي دلالة جزئية تفهم من سياق الكلام كقوله تعالى:﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: 3] فالمثنى والثلاث والرّباع هنا جزء من معنى العبارة (إباحة ما طاب من النّساء) وقد ترتبط بدلالة الالتزام(*)ويكون حينئذ المعنى المطابقيّ مقصودا تابعا. مثل: قوله عزّ وجلّ : ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 274] فأصل المعنى للتفريق بين حل البيع، وحرمة الرّبا، وهو معنى التزامي.

أمّا النّوع الثاني من الدلالة اللفظية فهو الدّلالة العقلية وهي «نوع من الدّلالة المشتملة على علاقة ذاتية بين الدّال والمدلول»( ). وتقوم على مبدأ الاستلزام بين الدّال والمدلول؛ فوجود أحدهما دليل على وجود الثاني.

وترتبط الدّلالة الطبيعية بـ «الدّلالة النّاشئة عن الأصوات الصّادرة عن الحيوانات، أو الصّادرة تلقائيا عن الإنسان للإشارة على حالة نفسية أو مزاج نفسي() .( )»، مثل صرخة الألم، أو الحمرة للدّلالة على الخجل، والصفرة للدّلالة على الخوف.

ويبدو أن مفهوم الدّلالة الطبيعية هنا يشوبه نوع من اللّبس على اعتبار أنّه يؤشر على نوع آخر من الدلالات غير اللفظية، أو ما يسمى في الاصطلاح الحديث بالعلامات غير اللّسانية، وهذا يؤكد لنا بأن مصطلح الدّلالة عند الأصوليين هو أقرب إلى مصطلح العلامة بشقّيها الدّال والمدلول.

ونشير أخيرا إلى أنّ الرّوافد التي استقى منها العرب وبورس منهجية التقسيم هي روافد منطقية، لأن أغلب العلماء قد نهلوا من الفلسفة اليونانية مما شكّل نقطة تقاطع بين التفكير العربي والتفكير الغربي.

الهوامش والإحالات

_(Ferdinand de Saussure : Cours de Linguistique Générale :éditeur Charles Bally , Albert Sechehaye et Albert Riedlinger , Payot, Paris, 1971, p : 33.:

_ ( ) برنار توسان: ماهي السّيمولوجيا، تر: محمد نظيف، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، .

_ ( ) عبد الواحد المرابط: السيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل، الدار العربية للعلوم ناشرون – بيروت، منشورات الاختلاف– الجزائر، ط1،

Charles Senders Peirce : Ecrit sur le signe, seuil, paris, 1978

_ ( )لخذاري سعد: الدّرس البلاغي العربي بين السّيميائيات وتحليل الخطاب، منشورات ضفاف–بيروت، منشورات الاختلاف–الجزائر، منشورات دار الأمان – الرباط.

_ ( )ينظر: ابن خلدون، علم أسرار الحروف (يراجع). وينظر أيضا: مقدّمة ابن خلدون، كتاب العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، دار الجيل، بيروت، الجزء الأوّل، _ ( ) ينظر: لخذاري سعد: المرجع السّابق، ص 68-69.

_ ( ) عادل فاخوري: تيارات في السّيماء، دار الطليعة للطّباعة والنّشر، بيروت–لبنان، ط1.

–(*) الاتجاه الظاهراتي اتجاه يتأسّس على الرّياضيات، ويعتمد الدّقة والتّجريد بعيدا عن النّزعة النفسية الذّاتية.

_ ( ) عبد السّلام عيساوي: الدّلالة بين النظامي والعِرفاني، الدّار التّونسية للكتاب، منوبة–تونس.

_ ( ) ينظر: لخذاري سعد: المرجع السابق، ص 115.

ـ ( ) عبد الغفار حامد هلال: علم الدلالة اللغوية: ، دار الكتاب الحديث، القاهرة.

ـ ( ) محمّد محمّد يونس علي: علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان.

المحاضرة الثّامنة

علم الدّلالة والعلوم الأخرى

تمهيد:

لا شكّ أنّ الدّراسات اللّغوية وغير اللّغوية خطت خطوات حثيثة في بناء هيكلها ومنهجها في البحث في العصر الحديث، وهذه الدّراسات في تطوّر مستمرّ تبعا لاحتياجات الإنسان في شتى مجالات الحياة خصوصا مع العولمة وما لها من أثر عميق في تدفّق التّقاطعات المعرفية بين هذه العلوم اللّغوية وتلك العلوم غير اللّغوية.

إنّه من الطبيعي – في ضوء ذلك– أن تتعالق العلوم ويأخذ بعضها في رقاب بعض، فهذه سنّة التّواصل العلمية القائمة على المناهج ال علمية، وبما أنّ اللّسانيات (Lingustics) من العلوم الدّقيقة التي عملت على دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، فقد كان لها أن استفادت من العلوم الأخرى، كما أنها أفادتها بالموازاة، ولأنّ علم الدّلالة (Semantics) فرع من اللّسانيات فقد احتاج في مسيرته أن يتفاعل ويتباين ويتقاطع مع علوم أخرى، منها اللغوية التي تصب في مجراه كـ (علم الأصوات، علم الصرف، علم النحو، علم المعجم، البلاغة الأسلوبية، التداولية، تحليل الخطاب، الترجمة، النقد الأدبي)، ومنها غير اللغوية (علم النفس، علم الاجتماع، علوم الاتصال، علم انثروبولوجيا، الفلسفة والمنطق)، والسّيميولوجيا، سنحاول في هذه المحاضرة التفصيل في بعض هذه العلوم، على أنّنا سنفرد محاضرات خاصّة لعلوم أخرى تبعا لمفردات المقياس التي أقرتها الوزارة الوصيّة.

أوّلا: علاقة علم الدّلالة بعلم الأصوات :

يمثّل الصّوت اللّغوي الأداة الأكثر فعالية للتواصل بين بني البشر، فهو يصاحب كل النّشاطات الإنسانية التي يشترك فيها اثنان أو أكثر، فيه تتحقق لغة التّفاهم وتبادل الأفكار، ونظرا لهذه الأهمّية التي يحظى بها، ظهر علم يهتم بدراسة الأصوات اللّغوية هو "علم الأصوات Phonetics "وهو العلم الذي يهتم "بدراسة الأصوات من حيث كونها أحداثا منطوقة بالفعل Actual speech events لها تأثير سمعيّ معيّن ( )" Auditory effects أي أنّه العلم الذي يهتمّ بحركة أعضاء النّطق وكيفية إنتاج الكلام، وصفات الأصوات ومخارجها والسّؤال المطروح هنا : ما علاقة هذا العلم بعلم الدلالة؟

نتمثّل هذه العلاقة بوضوح في مبحث "الفونيم Phoneme "القادر على التّمييز بين الكلمات من ناحية الدّلالة، فقد يحدث في ثنائي من الكلمات اختلاف في الدّلالة، يردّ إلى تبادل فونيمين معيّنين، ففي الإنجليزية مثلا يوجد تَغَايُرٌ في المعنى بين (Right) و(light) ، وبين (Town) و (down) وسببه هو وضع فونيم مكان آخر، بين (R) والـ (L) وكذلك الحال بالنسبة لـ (D) مع .( )(T)

ومما لاشكّ فيه أنّ العلوم اللّسانية تتعالق فيما بينها ويؤثر أحدها في الآخر، وهذه حال هذين العلمين (علم الدلالة/علم الأصوات) اللّذين يترابطان ترابطا وثيقا، فلا يمكن للكلمة الواحدة أن تنتظم دلالتها دون الإطار التّشكيلي الذي يبني وجودها، ذلك لأن الصّوت هو جسد الدّلالة، فكل استبدال للصّوت يؤدّي بالضّرورة إلى تغيير في دلالة الكلمة، وهذا ليس حِكْرا على لغة دون أخرى، إنما هو ناموس كلّ اللّغات الطّبيعية.

فبالنظر إلى التّراث العربي القديم، نجد من اللّغويين الذين وضّحوا الاختلافات الصّوتية وتأثيرها في التّعديل الدّلالي للكلمات ابن جني (ت 392هـ)، هذا اللّغويّ الذي توسّع في فكرة علاقة اللّفظ بمعناه، مركّزا على التّأثير الصّوتيّ للحرف في اختلاف دلالة الكلمات ( )، مثاله في ذلك تفرقته بين كلمتي (الخِضْمُ) و(القِضْمُ) بسبب التّمايز بين الفونيمين (الخاء والقاف)، فكلتا الكلمتين تدلّان على الأكل، غير أنّ هذا الأكل مرهون بطبيعة المأكول قوّة وضعفا؛ فإذا كان رطبا كالخسّ والخضار والفواكه فهو (خِضْمٌ)، وإذا كان للصّلب منها كالحبوب والأعلاف فهو (قِضْمٌ).

ومثله الفرق الدّلالي بين كلمتيْ (نضح)و(نضخ) حيث توجد مناسبة طبيعية بين الصّوت ومعناه؛ فالأولى للعَرَق وهي دالّة على قلّته، والثّانية للماء وهي دالّة على قوة تدفّقه، فالأوّل سيلان ببطء وتؤدة،

والثاني يكون لفوران السّائل بقوّة وبشدّة، ومردّ هذا الاختلاف الدّلاليّ إلى اختلاف صفة الصّوتين: الحاء والخاء، فالأوّل منهما مرقّق، وأمّا ثانيهما فمفخّم.

و بالانتقال إلى الفونيمات فوق التّركيبة (*) التي تدخل ضمن مباحث الفونولوجيا Phonology ذلك العلم الذي يبحث في الأصوات من حيث وظائفها في اللّغة، نجد ظاهر تي النّبر والتّنغيم؛ فالنّبر » (stress)نشاط ذاتيّ للمتكلم ينتج عنه نوع من البروز (Prominence) لأحد الأصوات أو المقاطع بالنّسبة لما يحيط به»( )، مما يؤدّي إلى العلو (loudness) في الأثر السمعي الذي ينتج عنه.

فالإنجليزية مثلا من اللّغات التي تستخدم النّبر للتّفريق بين المعاني، فيكون موضع النّبر فيها حرّا Free stress، فتغيير النبر في الكلمة يؤدي إلى اختلاف المعنى، فكلمة (August) إذا نُبِرَ مقطعها الأوّل دلّت على الشّهر المعروف باسم (أوت)، وإذا نُبِرَ مقطعها الثّاني دلّت على أنّ هذا الشّيء (جليل، ومَهيب).

ومثال ذلك بعض الكلمات التي تتشابه نطقا وتختلف معانيها :( )

Below-مع : Billow فالأولى بمعنى تحت، والثّانية بمعنى يتلاطم كالموج.

insight مع :incite الأولى بمعنى نفاذ البصيرة والثانية بمعنى يحرّض

أمّا التنغيم (Intonation) فهو تلك الدّرجات الصّوتية التي تقع على جملة كاملة أو أجزاء متتابعة منها، وهذه التّنوعات الموسيقية في الكلام بطريقة تمييزية تفرق بين المعاني.

وأحسن مثال نسوقه في هذا الباب من اللغة العربية كلمة (جزاؤه) في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا فَمَا **جَزَاؤُهُ** إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة يوسف: 74-75] (فجزاؤه) الأولى عبّرت عن الاستفهام لأنّ نغمته صاعدة، و (جزاؤه) الثّانية دلّت على التوّكيد، ودلّت (جزاؤه) الثّالثة على التّقرير .( )

ومن الكلمات المفردة التي توظف كجملة وتستعمل بأشكال متغايرة في اللغة الانجليزية نجد كلمة (yes) التي تنطق بتنغيمات مختلفة فتتغاير بذلك دلالاتها ؛ إنّ تغيير نوع التّنغيم بين المتوسط (الاستواء) والصّعود، والهبوط، والصّعود والهبوط معا، أو الهبوط والصعود معا، يؤدّي لامحالة إلى تغيّر دلاليّ في مدلول الكلمة، فـ (yes) هنا عبّرت عن جملة تقريرية عندما رادفت معنى (أوافق)، وجاءت نغمتها الصّاعدة لتدلّ على الاستفهام في صورتها الثانية، بينما جاءت نغمتها مستوية عندما عبّرت عن

الإخبار: (أنا منصت، استمر)، كما دلّت على الاحتمال بنزول نغمتها ثم ارتفاعها في الصّورة الرّابعة، لتعبر أخيرا عن النغمة الهابطة بسبب دلالتها على التوكيد في (بكل تأكيد).

ولعلّه يكفي لتلخيص ما سبق ذكره بخصوص علاقة علم الدّلالة بعلم الأصوات أن نقول : إنّ هذه الظاهرة التّطريزية (prosodique) هي مظاهر صوتية مصاحبة لعملية النّطق، ولها أهميتها وظيفيا في التّمييز الدّلالي بين الكلمات والجمل « فالمظاهر النّغمية في اللغة، قد تؤدّي من المعاني ما تعجز عن أدائها الكلمات، أو حتى نظام تأليفها التركيبي، بل إنها قد تقوم مقام عبارات محذوفة من حيث أداء الدّلالة وزيادة »( ) ، وهذا ما أوضح هـ (ابن جنّي) ، الذي حدّثنا عن طريقة أداء الكلام، ومطله، وتمطيطه، وأثر ذلك في عمليتي التّعبير والإفهام، وله في ذلك أمثلة ساقها في هذا المقام، مثال ذلك قوله : سألناه فوجدناه إنسانا ! فتفخيم لفظة (إنسانا) جعلتنا نستغني عن وصفه بقولنا، كان إنسانا سَمِحًا أو جَوَادًا.

وقد تتبّع خطى ابن جنّي بعض المحدثين الذين أكّدوا أهمّية العلاقة بين الصّوت والمعنى، كما فعل صبحي الصّالح حيث خصّص في كتابه " دراسات في فقه اللّغة " بابا تحدّث فيه عن "مناسبة حروف العربية لمعانيها"، وتعبير الصّوت عن غرض محدّد، سواء بوقوعه في أوّل الكل مة، أو في وسطها، أو في آخرها.

فمن الأمثلة المستشهد بها تفريقه بين كلمتَيْ " صَعِدَ" و "سَعِدَ" فيقول: " فجعلوا الصّاد لأنّها أقوى لما فيه أثر مُشَاهَد يُرَى، وهو الصّعود في الجبل والحائط، ونحو ذلك؛ وجعلوا السّين لضعفها، لما لا يظهر ولا يُشاهد حِسًّا" ( ). فالصّاد في عرف اللّغويين ومنهم – صبحي الصّالح–أقوى من السّين مخرجا وصفة، وعليه فحيثما وُجدت في الكلمة فهي تدلّ على القوّة والمشقّة والجهد، وهذا كلّه يمكن إدراكه عن طريق حاسّة البصر، بينما تدلّ السّين عندهم لضعفها وهمسها على كلّ خفيّ لا يمكن مشاهدته، لهذ ا تعبّر عن كلّ ما تعرفه النّفس دون أن تراه العين، والسّعادة مشاعر خفيّة لا يمكن مشاهدتها .

كما ألحّ محمّد المبارك من ناحية ثانية على القيمة التّعبيرية للحرف الواحد في اللّغة العربية، حيث يرى أنّ للحرف قيمة دلالية ووظيفية في تكوين المعنى وتحديده، وهذه الخاصّية أكثر بروزا في اللّغة العربية دون غيرها من اللّغات .( )

ثانيا: علاقة علم الدّلالة بعلم الصّرف:

تخضع الكلمة في النّص إلى جملة من التّغيرات البنيوية في صيغتها، فيؤدي ذلك إلى تغيّر في دلالتها، فالهيئة الشّكلية للكلمة متغيرة للدلالة على المفرد أو المثنى أو الجمع أو للدّلالة على التذكير والتأنيث في مجال الجنس، فقولنا مثلا : فرس وفرسان جعل الكلمة تنتقل من الإفراد نحو الجمع بزيادة الألف والنون، وهذه التّغييرات التّصريفية التركيبة هي مجال علم قائم بذاته يسمى علم الصّرف.

والصّرف في اللّغة التّفسير، وأما علم الصّرف فهو «العلم الذي يبحث فيما يقع في الكلمات (الجذور) من تغيير هدفه بناء كلمات جديدة »( )، كما يتجاوز ذلك إلى تصنيف الكلمات أهي صفات أو أسماء أو أفعال ضمن إطار الصّيغ الصرفية التي تُصبّ فيها، وما تؤدّيه هذه الصّيغ من وظائف ودلالات يتبيّنها المتلقّي من هيئتها وشكلها، أما التّصريف فقد أقرّ ابن جني بأنّه إخضاع الكلمة إلى الميزان الصّرفي فتتغير دلالتها بتغير صيغتها، كقولنا : كاتب، مكتوب، مكتبة، يكتبون، مكتبة، كتب...الخ، وفي اللغة الانجليزية كلمة (Fright) تعني (خوفا) فهي اسم(Noun) ، بينما عند تحويلها إلى فعل فيتعيّن إضافة اللاحقة (en) لتصبح فعلا بمعنى أخاف وأفزع (Frighten) فصنف الصّيغة أدّى إلى تغيّر نمط الكلمة من جهة، ودلالتها من جهة ثانية.

والملاحظ أنّ علم الصّرف كثيرا ما يتداخل من علمي الدّلالة والنّحو مَعاً، فتداخله مع النّحو مثلا يصعب إنكاره، نتمثّل ذ لك في ظاهرة الفعل المبني للمجهول، الذي يعدّ أكثر الوحدات اللّسانية تعبيرا عن هذه العلاقة، «فهو تغيير شكلي يصيب المفردة، (الجذور) إلاّ أنّه يستتبع تحويل المفعول به الأصلي إلى ما يشبه الفاعل شكليا، ونقله من موقعه السابق إلى موقع جديد في ترتيب عناصر الجملة، و يسمى في المصطلح النحوي العربي نائبا عن الفاعل.( )«

وهذا التّموقع الجديد من النّاحية النّحوية، مع تغيير حركة الفعل من النّاحية الصّرفية، يؤدي لامحالة إلى تغيير الوظيفة، ذلك أنّ : كَتَبَ محمّدُ الدَّرْسَ، وكُتِبَ الدَّرْسُ، غيّرت مجرى النّظام النّحوي، وسببه ا لأول هو تغيّر مجرى النظام الصّرفي بالانتقال من المعلوم نحو المجهول، عن طريق استبدال الصّيغة الصّرفية (فَعَلَ) بالصّيغة (فُعِلَ).

ويعدّ "المورفيم Morpheme "أصغر وحدة صرفية في بنية اللّسان التي يجعلها علم الصّرف موضوعا له، فهو وحدة دنيا حاملة للمعنى، وقابلة للتّغير في مستواها الدّلالي تبعا لتغيّر صيغتها الصّرفية، أو استبدال إحدى أصواتها بأخرى.

ومع تبدّل المورفيم يتضح لنا مستوى العلاقة الكامنة بين علمي الصّرف والدلالة ونمثل لذلك بنماذج من اللّغتين: العربية والإنجليزية كالآتي .( ) :

أمثلة من اللغة العربية أمثلة من اللغة الإنجليزية

-جِمَارٌ/ حَميرٌ (رجال))/ Men رجل Man (

-دَارٌ/ دُورٌ (أقدام))/ feet قدمFoot (

-سَرِيرٌ/أسِرَّةٌ (يمسك)) / hold أمسك held (

-كتاب/ كُتُب (قطط)/ cats قطcat

نلاحظ من خلال الجدول أعلاه أنّ اللّغة العربية قد اتخذت لكل اسم صيغ ة مختلفة في انتقاله من حالة الإفراد إلى حالة الجمع، فمثلا كلمة كتاب على وزن (فِعَال) فإن جمعها على وزن (فُعُلٌ) كُتُبٌ غير أنّ هذه القاعدة ليست مطّردة، ولا يمكن توظيفها مع كلّ الكلمات العربية، فكلمة (جِمار) على وزن (فِعال) غير أنّ جمعها على وزن فَعِيل /حمير .

وتتباين اللّغة العربية عن نظيرتها الإنجليزية التي لا تعتمد صيغة معيّنة في تحديد إفراد وجمع الكلمة، وإنما تعتمد طريقة تغيير البنية الشّكلية للكلمة المفردة، بعد تغيير بعض فونيماتها كما حدث مع كلمة (Men) في الجمع التي تحوّل فيها الفونيم الدّال على المفرد [a] إلى الفونيم [e] للانتقال من الإفراد إلى الجمع، حيث حوّل الصّائت الطويل إلى صائت قصير .

هذه الأمثلة وغيرها، تؤكد تشابك المستويين الصّرفي والدّلالي؛ ذلك أنّ أيّ تغيير في مستوى صيغة الكلمة يؤدّي لا محالة إلى تغيير دلالتها، فإضافة مورفيم الجمع (s) في اللّغة الانجليزية في كلمة (cats) قد حوّل الكلمة من دلالتها على المفرد إلى دلالتها على الجمع.

فهذه المورفيمات المقيّدة لها قيمتها في توسيع مجال دلالات المورفيمات الحرّة، ويتجلى هذا واضحا في اللغة العربية، فكلمة (مسلم+ ات) = مسلمات، وكلمة (مسلم+ ون) = مسلمون، لكلّ منهما مورفيمات دالّة على الجمع، غير أنّ هذا الجمع يتباين بين جمع المذكّر وجمع المؤنّث بتغير اللّاحقة الدّالة عليه. حيث جاء مورفيم الجمع في صورتين أولها (ات) وهو دال على جمع المؤنث، وثانها (ون) وهي تدلّ على الجمع المذكر.

ولنا في الخطاب القرآنيّ أمثلة ك ثيرة توضّح لنا تباين دلالة الصّيغ بتباين تشكيلها، فصيغة (فعّال) وزن قياسيّ من أوزان صيغ المبالغة، التي جاء على وزنها لفظ (لوّامة) في الآية الثّانية من سورة القيامة " ولا أقسم بالنّفس اللّوّامة " أفادت إلى جانب دلالتها المعجمية (اللّوم) تكرار اللّوم والمبالغة فيه، خوفا من عقاب المولى عزّ وجل بسبب الذّنوب التي يقع بها الإنسان.

نستنتج مما سبق ذكره أنّ المورفيمات (خاصة المقيّدة) متعدّدة الدّلالة ( )، ففي الإنجليزية يستخدم الصّوت (s) للدلالة على الجمع، وللدّلالة على أنّ هذا الفعل هو فعل مضارع مع الضميرين (she/he)، ومثل ذلك (التاء) في اللّغة العربية، قد تدلّ على تأنيث الاسم مثل : رقيّة، وتدلّ على المذكّر المفرد مثل: معاوية. وهي تدلّ على الجمع في مثل قياصرة، وعلى التّكثير والمبالغة كقولهم: علاّمة.

والملاحظ أنّ أقسام المورفيمات المذكورة أعلاه دائرتها واسعة، وهي تتّس ع لأصناف عديدة ومختلفة في اللّسان الواحد فما بالنا بالألسنة جميعا .

ثالثا: علاقة علم الدّلالة بعلم النّحو:

ما من شكّ فيه أنّ البحث في المعنى قاسم مشترك بين علوم كثيرة، فقد شغل الفقهاء، والفلاسفة، وعلماء النفس والاجتماع، والتربية وعلماء اللغة، والذي يعنينا هنا هو معرفة نظرة عالم النحو لهذا المعنى، فقد عرف اهتمامات كبيرة في الدّرس النّحوي العربي بدءا من سيبويه بصورة تدعو إلى تتبعه ورصده، ومعرفة ميزاته كي تتبين لنا نقاط الاشتراك بين علمي النّحو والدلالة.

وقبل أن نقف عند حدود هذه العلاقة وجب في البدء الإلماع إلى أنّ هناك اتجاهين في الدّرس اللغوي المعاصر؛ اتّجاه يربط النّحو بالدلالة ويرى أنّ النّحو هو الأساس والدّلالة عنصر تفسيري، وهو الاتّجاه المتبّنى من طرف تشومسكي، والقائل بالدّلالة التّفسيرية، بينما يرى الاتجاه الثاني أنّ الدّلالة هي التّركيب العميق للجملة وأ نّ النّحو ليس سوى وسيلة لتحويل التّركيب العميق إلى تركيب سطحيّ، وهنا يكون لدينا ما يسمّى بالدّلالة التوليدية ( )،ويمثّله المعارضون من تلامذة تشومسكي الذين يرون أنّ التّحويلات لا يجب أن تغيّر المعنى.

إلا أنّنا نتبنّى الرّأي القائل بتداخل النّحو والدّلالة، فم ن الصّعوبة بمكان الفصل بينهما؛ فالدّلالة تتغير بتغير البنية التركيبية، وهذا ما أشار إليه إمام النّحاة سيبويه (ت180هـ) في أكثر من موضع في كتابه، خصوصا في موضوع (باب الاستقامة من الكلام والإحالة) يقول فيه: " فمنه مستقيم حسن، و محال، و مستقيم كذب، و مستقيم قبيح، و ما هو مُحَالٌ كذب.

-فأمّا المستقيم الحسن فقولك : أتيتُكَ أمْسِ و سآتيك غدًا.

-و أمّا المحال فأن تنقض أوّل كلامك بآخره فتقول : أتيتك غدًا ، و سآتيك أمسِ.

و أما المستقيم الكذب فقولك : حَمَلْتُ الجَبَلَ ، و شرِبْتُ مَاءَ البَحْرِ ، و نحوه.

و أما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدًا رأيتُ ، و كيْ زيدٌ يأتيكَ ، و أشباه هذا.

و أما المحال الكذب فأن تقول: سَوْفَ أَشْرَبُ مَاءَ البَحْرِ أَمْسِ .( )"

ارتبط مفهوم الاستقامة عند سيبويه بالصّحة النّحوية؛ فكلّ ما وافق قواعد اللّغة العربية تركيبيا يعدّ كلاما مستقيما؛ و أمّا إن خالف هذه القواعد فهو من الكلام المحال، ثم تدرّج بعد ذلك في تحديد أقسام الكلام المستقيم انتقالا من الكلّ نحو الجزء؛ إذ جعل المستقيم ثلاثة أقسام منها : الحسن و منها القبيح و منها الكذب؛ و هذه الأحكام جميعها متعلقة بالمعنى الذي تفيده عناصر الجملة عندما تترابط نحويا .

المثالان اللّذان ساقهما سيبويه في نموذج " المستقيم الحسن " هما: أتيتُكَ أمسِ، و سآتيك غدًا، و كِلا الجملتان تتصدران بفعل يتلوه فاعل ثم المفعول به، ثم ظرف الزمان، فبنيتهما النّحوية متشابهة . غير أنّ الاختلاف بينهما يكمن في دلالة الجملة الأولى على المضي عن طريق موافقة الفعل (أتيتك) مع ظرف الزمان (أمسِ)، بينما أحالتنا الجملة الثانية على المستقبل بتصدرها باللّسين (حرف التنفيس) الدّالة على المستقبل مع الفعل المضارع، واتّفاق ذلك مع الظرف (غدًا) الدّال على المستقبل "ولذلك جاء هذان المثالان من الكلام المستقيم الحسن الذي لم تتصادم فيه قواعد الاختيار في الوظائف النحوية و المفردات بدلالتها الأولية . فالحُسْن إذن – بهذا المنظور – متعلق بمدى تعالق الكفاءتين النحوية والدلالية؛ فالصّحة النحوية مع الاستقامة الدلالية تعطينا نصا مقبولا في منتهى الفصاحة .

بينما المستقيم الكذب ما كان صحيحا نحويا، وخرج من سياق الحقيقة نحو المجاز كما في قولهم : حملت الجبل وشربت ماء البحر . فالملاحظ أنّ الجملتين الفعليتين صحيحتين نحويا، إذ تألّفت الأولى من (فعل + فاعل + مفعول به)، و تألّفت الثانية من (فعل + فاعل + مفعول به + مضاف إليه).و من هنا حُكم عليهما بالاستقامة، و لكن السّؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا وصفتا بالكذب ؟

إنّ " الكذب " كحكم قيمة ارتبط عند سيبويه بالصّورة المجازية التي تُحيل المتلقّي من عالم الواقع المقبول موضوعيا إلى عالم التخييل المرفوض لعدم قدرة الإنسان على إدراكه . فعلى الرّغم من تحقّق

التّرابط في الجملتين السّابقتين في بنيتهما النّحوية، غير أنّ العلاقة الدّلالية بين عناصرهما لا تبدو منطقية عند صاحب الكتاب؛ لأنه يستحيل على الإنسان حمْل الجبل لأنه يتجاوز طاقته وقوّته، كما لا يمكن له أن يشرب ماء البحر لملوحته من جهة، ولغزارته وكثرته من جهة ثانية .

أمّا المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، فيجيء التّركيب خاطئا، نحو قولك : قد زيدًا رأيتُ. فالقُبح بهذا المنظور إذن مقرون بفساد الدّلالة التي لا تتحصل من هذا ال تقديم والتأخير الذي أفسد المعنى.

ويبدو أن أهمّية التّعالق بين التّركيب والدّلالة في الخطابات اللّغوية لم يكن من اهتمامات سيبويه فحسب، بل جاء موضوعا للنّقاش عند اللّغويين الذين جاؤوا بعده إذ يؤكدون على أوجه التّرابط بين الدّلالة والنّحو في مبحث أطلقوا عليه تسمية " التّعليق النّحوي" الذي كان عندهم منطلقا مهمّا في فهم المعنى، كما عبّر عن ذلك المبرّد (ت 285هـ) إذ يقول بأنّ " اللّفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئا، وإذا قرنتها بما يصلح حدث معنى، واستغنى الكلام "( ) لأنّ الفائدة من الكلام لا تتحصّل من الكلمة الواحدة، بل من تعالق الكلام بعضه ببعض، ونظمه كما سيؤكد ذلك عبد القاهر الجرجاني (ت 474هـ) فيما بعد الذي فسّر النّصوص على معطيات النّحو ومعانيه .( )

فلا نظم في الكَلِم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، وينبني بعضها على بعض ضمن سياقات خاصّة، وعلاقات تبادلية بين الكلمات لبناء الدّلالة التركيبة، ولتحصيل المعنى النّحويّ الدلالي، ويتجلّى ذلك عند السّكاكي (ت 626هـ) أيضا الذي عرّف النّحو بأنّه: " معرفة كيفية التّركيب فيما بين الكَلِم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها .( )"

إنّ الأقوال السّابقة تؤكّد بأنّ إخضاع الجملة العربية إلى تغييرات على مستوى ترتيب عناصرها يؤدي إلى تعديل فهم المتلقي لها بسبب تغيّر دلالاتها من تركيب إلى آخر، ونمثّل في هذا بالجملتين الآتيتين:

-1رجال كثيرون يقرأون قليلا من الكتب.

-2قليل من الكتب يقرأها رجال كثيرين .( )

إنّ معنى الجملة الأولى يختلف عن معنى الجملة الثّانية؛ فالأولى توضّح لنا أنّ كثيرا من الرّجال يقرأون بقلّة، بينما تُحيلنا الثّانية على أنّ هناك كتبا قليلة (كالقرآن الكريم) هي التي يقرأها أُنَاسٌ كثيرون، والدّاعي إلى اختلاف الدّلالة بين الج ملتين، هو التّرتيب الذي ساعد- عن طريق التّقديم والتّأخير- على توجيه

الدّلالة في مَسَارَيْنِ مختلفين، وعليه، فإنّ «للمعرفة الدّلالية أهمية محورية للغاية بالنّسبة لكلّ عمليات الاتّصال؛ فصيغٌ بلا معانٍ ليست لها بالنّسبة لنا أية قيمة اتّصالية »( )، كما أنّ المفتاح الرئيس لذلك هو تلك العلاقة الرابطة بين علم الدّلالة وعلم النّحو التي تحقّق التّواصل وفق شروطه القواعدية من جهة (تأليف النص)، وشروطه المعجمية من جهة ثانية.

إنّ هذا التّعالق القويّ بين الدّلالة والنّحو كان موضوع نظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني، وفي هذا يقول:« وبعد أن كنّا لانشكّ في أنّ لا حال للّفظة مع صاحبتها تُعْتَبَرُ إذا أنت عزلت دلالتهما جانبا، وأيّ مساغ للشكّ في أنّ الألفاظ لا تستحقّ من حيث هي ألفاظ أن تنظّم على وجه دون وجه، ولو فرضنا أن تَنْخَلِعَ من هذه الألفاظ التي هي لغات دلالاتها لما كان شيء منها أحقّ بالتّقديم من شيء، ولا يتصور أن يجبَ فيها ترتيب ونظم »( )، فهذه إشارة منه إلى أنّ الوظائف النّحوية المتولّدة من التراكيب، تجعلنا نعاين دلالتها بيسر، كلّما ابتعدنا قدر الإمكان عن النّظرة الأحادية التي تستشرف الدّلالة المعجمية للألفاظ بمعزل عن ا لتركّيب، الذي يمثّل محصّلة للدّلالات الجزئية التي لا يمكن اختبراها بمعزل عن العلاقات التي تُسند إليها كوظائف داخل التركيب.

كما أنّ علم الدّلالة يهتم في التّراكيب بوظيفة كل كلمة على حدة، باحثا في صور الزيادة والحذف، وتعدد الأساليب بتعدّد الدّلالات، فالمثال المشهور في الأدبيات النّحوية يحيلنا على اختلاف هذه الجمل دلاليا نظر للزّيادة المضافة إليها:

-عَبْدُ اللهِ قَائِمٌ: إخبار عن قيام عبد الله لمن يجهل ذلك.

-إِنَّ عَبْدَ اللهِ قَائِمٌ: تأكيد لمن يشكّ في قيامه.

-إِنَّ عَبْدَ اللهِ لَقَائِمٌ: إجابة لمن ينكر قيامه.

ولم تكن علاقة النّحو بالتّركيب حِكرا على علماء العرب فحسب، بل نجد هذا التّعالق يزداد قوة مع النّماذج التّوليدية في الدّرس اللّساني الحديث، وهو ما يظهر بشكل جليّ في (النّموذج المعيار)، ونموذج نظرية (المبادئ والوسائط)، ثم مظاهر هذا التّعالق في (النّظرية الأَدْنَوِيَة) .( )

»فالنظرية المعيار» أكّدت على أهمية العلاقة بينهما، فكلّ مقولة معجمية يولّدها المكوّن التركيبي تخصص بسمات دلالية، فالفعل مثلا ينتمي دلاليا ما يناسبه، وخرق القيود الانتقائية (شومسكي، 1965، ص

110) يؤدي حتما إلى توليد جمل مقبولة تركيبا لكنّها تخرق الدّلالة، فمن خلال المقارنة بين المثالين المواليين.( ) :

-جاء القاتل مسرعا.

-جاء المقتول مسرعا.

يمكننا الحكم بصحة الجملة الأولى لاحترامها للجانبين التركيبي والدلالي، ولحن الجملة الثانية (جاء المقتول مسرعا)، لأنّ الفعل (جاء) وفاعله (المقتول) لا يرتبطان دلاليا، لأنّ من سمات الفعل (جاء) السّمة الدلالية [+متحرك] وهو ما لم يتوفر في (المقتول) الذي من سماته الدّلالية [-متحرك].

أما نظرية "المبادئ والوسائط" فقد ثمّنت هذه العلاقة عبر مقولة القالب الإعرابي الذي يتصل اتصالا وثيقا بالدلالة؛ حيث لا يمكننا تفسير الوظائف الدّلالية للعلامة الإعرابية للمركّبات الاسمية إلا في التّركيب، وأخيرا في النموذج الأدنوي 2011م عندما افترض تشومسكي أن ملكة اللّغة تقتضي أربعة أنساق فرعية مستقلة لكنّها متفاعلة وهي : المعجم، النّسق الحوسبي (الجانب التركيبي)، والنّسق الحسّي الحركي، والنّسق القصدي التصوري (الدّلالي) ( ) ، وهو خير دليل على التّرابط القائم بين الدّلالة والنّحو .

نستنتج من التّحليل السّابق بأنه يصعب على الباحث رسم حدّ فاصل بين الدّلالة والنّحو، لأن هذين العلمين متشابكان على نحو دقيق، مما يعيننا على الكشف الدّقيق للالتباس الدّلالي حال ما يحدث في تركيب ما، ويبدو للرّائي أنّه صحيح نحويا.

لإبراز ذلك سنناقش الجملة الآتية.( ) :

إِنَّهُ أَخفّ بِالنِّسبة إِليَّ لكي يُرفع It's too light for me to lift

نلاحظ من خلال هذا المثال المقدّم أنّ الجملة صحيحة نحويا في اللّغتين : الإنجليزية والعربية، غير أنها تظهر تحريفا دلاليا، سببه كلمة) خفيف(light /، وهذا لأنّها لا تنسجم دلاليا مع (الفعل) الذي يتطلب شيئا ثقيلا يتطلّب جهدا لرفعه(Heavy) ، ومن هنا يتّضح لنا أنّ هناك تغييرا دلاليا قد وقع في التّركيب مما أدّى إلى التباس دلاليّ، ولكن مع استبدال أحد العناصر (أخفّ) بعنصر آخر (أثقل) تصبح الجملة صحيحة دلاليا. ويزداد الأمر تعقيدا مع الصور المجازية كقولهم:

The green idea is sleeping: الفكرة الخضراء نائمة–

فهنا لا يمكننا فصل التّركيب عن الدّلالة بسبب المعنى الثّاني (المجازي)، الذي تحقّق من اجتماع وحدتين معجميتين لا تجتمعان، لأنّ الفكرة الخضراء شيء غير محسوس، ولا يملك عيونا، ومن ثمّ لا يمكن أن ينام، ولكن تمّ تشخيصه وإكسابه صفة من الصّفات الإنسانية، وهي القدرة على النّوم، وهذا انحراف دلالي جليّ أسهم التّركيب عبره إلى خلق تلك العلاقة المجازية بين عالم الفكرة وعالم الإنسان.

وهذا النّوع من الجمل التي تُقرأ قراءتين واحدة حقيقية، وثانية مجازية، يخضع لغرض المتكلم، لأنّه المسؤول الأول عن هذا التّحريف والانتقال، وهذا يدخل تحت ما اصطلح عليه الدّارسون المحدثون (مبدأ خرق قيود الانتقاء) الذي تبناه كل من (Ducrot) وكاريل/(carel) ، وباتريسيا شولز patricia) (shulzالتي تعتبر أنّ التّحول من الحقيقة إلى المجاز في اللّغة إنّما هو تصّور ناتج عن موقعنا من اللغة»( )، وهذا لأن السّمات الدّلالية المسندة إلى المكوّنات المعجمية لا علاقة لها بالإحالة، وإنما يتمّ تأويلها في مستوى تصوّراتنا عن العلاقة بين اللّغة والعالم الخارجي.

رابعا: علاقة علم الدّلالة بالمعجم:

تشير الدّراسات الحديثة في مجال البحث اللّساني على أنّ المعجم هو تلك «المجموعة القارّة من التّرابطات المخزّنة التي تحصُل بين الأشكال الصّرفية أو) الصّرفيات/ المورفيمات (Morphemes ومعانيها أو استعمالاتها (أو قيمها الدلالية والتركيبية)، ويسمّى كلّ ترابط مدخلا مُعجميا » ( ). فهو بهذا المفهوم كتاب ضخم يضمّ بين دفّتيه عددا كبيرا من المفردات التي يشتقّ بعضها من بعض، لتبيان دلالاتها المعجمية ثم السّياقية، وهي جميعها ترتبط تحت مدخل معجميّ واحد، يمثّل الشّجرة القاعدية للوحدات المعجمية.

وبما أنّ المعجم يتّصل بالدّلالة، فإن نقطة لقائهما هي "الدّلالة المعجمية"؛ لأنّ معاني الألفاظ في أيّ لغة لها هذا النّوع من الدّلالة النّابع من المستوى الذهنيّ، الذي يعمل على تكييف التقاطنا لمختلف التّجارب، فتتعدّد بذلك الدّلالات وتتمايز، تبعا لتصوّرات الإنسان في مختلف مناحي حياته.

كما أنّ الدّلالة المعجمية في النّظرية التأويلية تجعل فهمها مرتبطا بقيود نلخّصها في الآتي .( ) :

-1قيد اللّفظ : هو مدخل رئيسي لفهم الخصائص الصّرفية للّفظ، لأنّ لكل مفردة سمات مقولية تصريفية. (المدخل المعجميّ)

-2قيد الانتقاء: يقتضي هذا القيد مراعاة الملاءمة بين اللّفظ والمعنى من جهة، وضمّ معاني المفردات بعضها إلى بعض من جهة ثانية، حتّى نتحصل في الأخير على قراءة مفيدة للمتواليات في الجملة . (تعدّد الدّلالة بتعدّد السّياقات).

-3قيد الإدماج: دوره مراقبة الخصائص التركّيبة لكلّ مفردة، ومدى انتظامها مع غيرها من المفردات، مثال ذلك: حروف الجرّ فهي خالية من المعاني الذّاتية، ومعانيها تأخذها من الألفاظ المجاورة لها .(التّعالق الدّلالي).

يتبيّن من خلال هذه القيود أن الجانب التركّي بي في المعجم له دوره في التّدقيق الدّلالي للوحدات المعجمية، التي بدورها ستوظف في تراكيب متعدّدة تتناسب والتّصور الذّهني المراد تحقيقه . فلا يمكن أن يوجد المعنى المعجميّ بمعزل عن المعنى النّحويّ الذي سيسهم في بناء المعنى السّياقيّ، وهنا نتبيّن أنّ العلاقة بين علم الدّلالة والمعجم، هي علاقة تلازمية تكاملية، لا يمكن لأحدهما أن ينفصل عن الآخر .

وحتى نتبين صور الوحدات المعجمية وتآلفها الدّلالي على مستوى التركّيب، سنقدّم بعض الأمثلة القرآنية.

*الفرق بين الوحدتين المعجمتين (كل)، (وأجمع): يقول تعالى :فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ [الحجر:30]؛ فكلا اللّفظين يحدّد مجال صفة السّجود وهيئته، غير أنّ الفارق الدّلالي بينهما يؤكد أنّ (كلّ) تدلّ على الشّمول والإحاطة، بينما (أجمع) على الضّم والاجتماع، وعليه « ف (كلّ) تدلّ على عموم الامتثال و(أجمعون) تدلّ على سرعة الاستجابة .( )«

*الفرق بين الوحدتين المعجميتين : (الخشية) و(الخوف): يقول عزّ مقامه :وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ] [فاطر:28.[

جاءت (الخشية) في هذا المقام للدّلالة على عِظَمِ المخْشِيّ وإن كان الخَاشِي قويّا، ولم يقل (إنّما يخاف) لأنّ الخوف من ضُعف الخَائِفِ وإن كان المخَوِّفُ أمرا يسيرا لا وزن له ( )، وهنا في هذا السياق وظّفت كلمة الخشية بديلا عن (الخوف)، لأنّ العلماء متيقّنون من عظمة الله سبحانه، ويعلمون قدرته وجلاله .

*الفرق بين الوحدتين المعجمتين: (الهبوط) و(النزول) :

جاء معنى الهبوط في القرآن الكريم للدلالة على الاستقرار، بينما عبّر النّزول عن ضدّه؛ يقول عزّ وجلّ : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ا للَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة:61]، وقوله أيضا : ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38] .

يلاحظ المتلقّي لهذا الخطاب بأنّ الهبوط مرتبط بالاستقرار؛ لأنّ المعنى انزلوا إلى الأرض للإقامة فيها، فلا يقال هبط الأرض إلاّ إذا استقر فيها، بينما النّزول إن لم يكن يستقرّ بالمكان .( )

إنّ تفسير المعنى في الآيات السّابقة الذّكر مُنطلقة معجميّ، ومنتهاه دلاليّ؛ فالعناصر المعجمية حدّد معناها بدءا داخل المعجم، ثم انتقل المعنى إلى السّياق، ومنه فإنّ هذا الاهتمام بمسألة التّوازن بين الدّلالة المعجمية والدّلالة السياقية يحيلنا على ذلك الرّابط القويّ بين مجال الدّلالة ومجال المعجم.

ويمكننا بذلك أن نستخلص أنّ طبيعة العلاقة بينهما، هي علاقة العموم بالخصوص (والجزء بالكلّ) فعلم الدلالة يهتم بدراسة المعنى على صعيدي المفردات والتّراكيب، بينما يّتجه المعجم إلى جزء مخصوص فقط وهو المعنى المعجمي، وعليه فإن الصّلة الوثيقة بنيهما واضحة، فلا يمكن لعلم الدّلالة دراسة المعنى إلا انطلاقا من المعاني الأساسية للكلمات التي يزوّده بها علم المعاجم، ليوسّعها بعد ذلك إلى الدّلالة النّحوية التي تتأسس على العلاقات القائمة بين الوحدات اللّسانية في الجملة، أو الدّلالة التّداولية التي تبحث في مقصدية المتكلم داخل المجتمع.

فمثال الوحدات المعجمية التي تبني الدّلالة العامّة للجملة المثال الآتي .( ) :

The cat sat on the mat: جلست القطّة على الوسادة–

نلاحظ من خلال هذا المثال أنّ الاختيارات المتعلّقة بالأبنية المعجمية موازية للاختيارات المتعلقة بالدّلالة، كما أنّ تآلف الوحدات المعجمية بصورة مناسبة (خضعت لنظام البنية النّحوية) أنتج لنا الدّلالة العامّة للجملة، وهذا يؤكد حصول الدّلالة بين الوحدات المعجمية التي تكون ضمن ترتيب تصنيفي في القاموس، وسرعان ما تأخذ مواقعها في الجملة، فينتقل بنا المعنى من حالة الثّبات والعموم إلى حالة الحركة والخصوص، عند اتّصال الوحدات المعجمية بعضها ببعض ضمن قواعد تركيبية لخلق بنية لسانية دالّة.

خامسا: علاقة علم الدّلالة بالأسلوبية:

إنّ أكثر الباحثين اشتغالا على توضيح هذه العلاقة عند الباحثين اللّغويين من المحدثين هو (ستيفن أولمن) (*)في مقالته الموسومة (stylistics and semantics) :سنة 1971 م، الذي بحث في هذا الرّبط القائم بين علم الدلالة وعلم الأسلوب، أو – على الأقل- أمام طبقتين من المعنى : المعنى المعرفي، والمعنى التّعبيري.

فعلم الدّلالة- بوصفه أحد فروع اللّسانيات العامة –يقع محور اهتمامه في بحث قضية "المعنى المعرفي " " " Cognitive Meaning، أمّا علم الأسلوب-بوصفه علما موازيا مستقلا-فهو يعالج قضية "المعنى التعبيري .( ) "Expressive Meaning " "

يطرح هذا النّص إشكاليتين جوهريتين، فأمّا الأولى منهما، فتتصل باستقلالية أو اتّصال علم الدّلالة بعلم الأسلوب، من منظور أنّ كلّ قسم من أقسام اللّسانيات يوازي قطاعا من قطاعات علم الأسلوب، فنتج عن ذلك مصطلحات مزجية من مثل : الأسلوبية الصّوتية (Phonostylistics) والأسلوبية الصّرفية (Morphostylistics)، والأسلوبية التركيبية (Syntacticostylistics) وهنا نتساءل هل توجد أسلوبية دلالية؟ وأمّا الثّانية فتتمثل في : ما طبيعة العلاقة القائمة بين المعنى المعرفي والمعنى التّعبيري (*)؟

حاول (ستيفن أولمن) الإجابة عن هذين السّؤالين في مقالته السّابقة عبر جملة من الأطروحات التي عالجها في مقالته، ويمكن تلخيصها في النّقاط الآتية:

-1علاقة الأسلوبية باللّسانيات: يؤكد هذا اللّساني أنّ الأسلوبية ليست فرعا من اللّسانيات « بل هي علم موازٍ يقوم بفحص الظواهر نفسها من وجهة نظره الخاصّة »( ). وهذه إشارة منه إلى ان التّحليل اللّساني القائم على المستويات الأربعة المعروفة، هو النّهج ذاته الذي تعتمده الأسلوبية لأنّها تكشف عن البنية التّحليلية ذاتها.

-المستوى الصّوتي: يعدّ المكوّن الصّوتي قاسما مشتركا بين علم الدّلالة والأسلوبية، فكلاهما يبحث في المحاكاة، والرّموز الصوتية وتأثيرها دلا ليا على نظام الخطاب، خصوصا تلك التأثيرات الجمالية الصّوتية التي نجدها في الشّعر مثلا . ولنلاحظ معا هذا الانسجام الصّوتي في مقطع من أنشودة المطر لبدر شاكر السّياب يقول فيها :

أنشودة المطر

عَيْنَاكِ غَابَتَا نَخِيلٍ سَاعَةَ السَّحَرْ

أو شُرْفَتَانِ رَاحَ يَنْأَى عَنْهُمَا القَمَرْ

عَيْنَاكِ حِينَ تَبْسُمَانِ تُورِقُ الكُرُومْ

وتَرْقُصُ الأَضْوَاءُ ... كَالأَقْمَارِ فِي نَهَرْ...

* * *

أنشودة المطر

مطر..

مطر..

-المستوى الصّرفي: يقول ستيفن أولمن: «إنّ وجود الكلمات المركّبة، والمشتقات الشّفافة الصّرفية أمر وثيق الصّلة بالناحية الأسلوبية، ويرجع ذلك-بشكل رئيس-إلى الإيحاءات الشّعورية (التّحقيرية، المزاجية...الخ) لبعض هذه الفعاليات »( ). ويمكن للمتلقّي أن يلمس ذلك في النّصوص الشّعرية التي تمتلئ بالظلال الإيحائية؛ حيث تتكرّر الكلمة في صورتين مختلفتين من أصل اشتقاقي و احد، وتكون لكلّ منهما دلالتها الخاصّة، مثال ذلك هذا السّطر الشعري لـ إليوت Eliot إذ يقول:

And time yet for hundred indecisions

And for a hundred visions and Revisions

وترجمته :

ومازال في الوقت متّسع لمائة تردد

ولمائة نظرة... وإعادة نظر

-المستوى الدّلالي: تتقاطع الدّلالة بالأسلوبية عندما تخرج الكلمة من معناها الأساسي إلى معناها المحوّل، فتنبثق في ذلك دلالات هامشية تعطي النّص خلودا على رأي بروست . وهذا الخلود لا ينبثق إلا من

تلك الصّور الاستعارية المدهشة التي يبدعها المبدعون، عن طريق الكثافة الدّلال ية التي تحويها، ولنا في مقطع لقصيدة "بودلير" الموسومة "كآبة (spleen) "يقول .( ) :

أنا مقبرة يمقتها القمر

فيها تزحف الأفاعي مثل النّدامات،

دائما تتغذّى على هؤلاء الموتى الذين أحببتهم كثيرًا

ف"بودلير" يقدّم صورة استعارية مدهشة، فقد شبّه تجربة فيزيقية محسوس ة-بشكل مؤلم- بعملية نفسية مجرّدة، فخلق بذلك ظلالا إيحائية "لصناعة أنشودة رمادية" ،حيث يلتقي الغموض والوضوح على رأي "فجرلين "varlaine " "في كتابه (فنّ الشّعر) .( )"Art poétique "

-2أنواع المعنى:

يعتمد "ستيفن أولمان" على تقسيمه الثّنائي للمعنى، معرفي وتعبيري، غير أنّه لم يوضّح النظر في هذه المسألة بشكل دقيق، ذلك أنّ المعنى المعرفي هو المعنى المعجمي الثابت المصطلح عليه ضمن جماعة لغوية، وهو-عنده -ليس بالأهمية التي يحظى بها النوع الثاني من المعنى وهو "المعنى التعبيري" وفي ذلك يقول: «إذن سوف أحاول داخل هذا الإطار اللّغوي أن أحدّد القيم « التّعبيرية» التي يمكن أن تكتسبها عناصر دلالية معيّنة: أي هذه العناصر التي تلوّن المعنى المعرفي للكلمة، أو تعمّق أثره، أو تقوّي تأثيره)«

في ظلّ هذا التّصور، يمكننا التّمييز بين نوعين من المعنى؛ الأول منهما هو «المعنى المعرفي الإ شاري» وهو قطعي يتميّز بالثبات، ويخضع لمقياس الاتّفاق، بينما لا يتّبع «المعنى التّعبيري » منحىً مشابها لأنه استعمال شعوري يقابل عنده مصطلح «الدّلالات التضمّنية(Connotations) « ، أو مصطلح « الظّلال الايحائية(Overtones) «، وهي يمكن أن تتولّد عن الاسم، أو تتو لّد عن المعنى، أو تلك الظلال التي تحيط بالكلمة بوصفها كلاّ متكاملا.

فالأسماء الأسطورية ذات محمولات إيحائية مثل : (هيلانة، هيكتور، مينالوس، إينياس، أدونيس)، وتوجد بالموازاة ظلال إيحائية ناتجة عن المعنى، إذ يقتصر بعض هذه المعاني على سياق أو موقف معيّن، فكلما ت مثل "مخدّرات" "التّمييز العنصري"، "المجابهة"، "الإرهاب"( )، فمعانيها عامّة رائجة بين المجتمعات، وهي ذات دلالات حافّة قابلة للتغير من مجتمع إلى آخر، فمفهوم (الانتفاضة) عند العرب المسلمين ليس هو

نفسه المفهوم عند الأجانب، أو عند اليهود الذين يحتلّون فلسطين ، أمّا الظلال التي تحيط بالكلمة فهي متّصلة بعدّة طرق تكون صوتية، أو معجمية، أو نحوية .

نمثّل للنّموذج الصّوتي بما يسمّى "النبرة الصّوتية Emotive accent "في الفرنسية، وهي التي تقع على المقطع الأوّل من الكلمات التي تبدأ بصامت مثل. (C'est formidable!) :

أمّا الجانب المعجمي فيتحدّد بالاختيارات المدروسة للمبدع عند توظيفه للكلمة، إذ يجب عليه وضع اللّفظ المشتق المناسب بغاية التّأثير الشّعوري، وأما الجانب النّحوي فيتّصل بالتركيب، وتلك الترتيبات الخاصّة في الجمل من أجل تقوية الظلال الدّلالية الإيحائية، التي تقع في منطقة الوسط بين اللّسانيات وعلم الأسلوب، وقد عبّر (أولمان) عن ذلك بقوله : «وأنّه يمكن النّظر إليه على أنّه يشبه منطقة نفوذ مشتركة لكلا العلمين».

الإحالات والهوامش:

–كمال بشر: علم الأصوات، دار غريب للنّشر والتّوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2000م، _

– ينظر: أحمد مختار عمر: دراسة الصّوت اللّغوي، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2006م،

_ ( )ينظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق: محمد علي النّجار، دار الكتب المصرية – القاهرة، المكتبة العلمية، بيروت– لبنان، .

–(*) هذا المصطلح ذكره أصحاب نظرية الفونيم، في مقابل الفونيم التركيبي segmental) (phonemeالذي يشمل الجزئيات الصّوتية التي تُستخدم في تركيب الحدث الكلامي كالسّواكن والعلل

-ينظر: خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات، بيت الحكمة، العلمة-الجزائر، ط1، 2009م،.

ـ ( ) نواري سعودي أبو زيد: الدّليل النّظري في علم الدّلالة، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر .

-( )ينظر: صبحي الصّالح: دراسات في فقه اللّغة، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان .

-( )ينظر: رفيقة بن ميسية: علاقة علم الدّلالة بعلوم اللّغة، مقال ضمن الكتاب الجماعي: دراسات في الدّلالة وتطبيقاتها، المرجع السّابق، ص100.

ـ ( ) إبراهيم محمود خليل: في اللّسانيات ونحو النّص، المرجع السابق، ص 65.

ـ ( )ينظر: عبد الحميد عبد الواحد: الكلمة في اللّسانيات الحديثة، المرجع السّابق، ص 110-11.

ـ ( ) ينظر: إبراهيم محمود خليل، المرجع السابق، ص 76.

-( )سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1988 م،.

-( )المبرّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد: المقتضب، تحقيق: عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشّؤون الإسلامية، القاهرة، ط2، 1979م.

-( )ينظر : الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرّحمان بن محمد: دلائل الإعجاز، تعليق: محمود محمد شاكر، -( )السّكاكي، أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمّد بن علي : مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

ـ ( ) ينظر: صلاح الدّين صالح حسنين: الدّلالة والنّحو، المرجع السّابق، الصفحة 115.

ـ ( ) عبد القاهر الجرجاني: المصدر السابق، ص 41.

ـ ( ) للتفصيل ينظر: محمد الغريسي: التعالق بين الدّلالة والتركيب من خلال بعض النّماذج التّوليدية، كتاب جماعي بعنوان: الدّلالة بين النّظامي والعرفاني، إشراف: عبد السّلام عيساوي، الدّار التونسية للكتاب، منوبة-تونس، ط1.

ـ ( ) محمد الغريسي: التعالق بين الدّلالة والتركيب من خلال بعض النّماذج التّوليدية، المرجع السّابق،

ـ ( ) ينظر: كروس: علم الدّلالة المعجمي (السيمانطيقا المعجمية)، ترجمة: عبد القادر قنيني، دار أفريقيا الشرق – المغرب، (د.ط)، 2014.

ـ ( ) ينظر تفصيل مبدأ خرق الانتقاء الدّلالي في كتاب : عبد السّلام عيساوي: الأبعاد التأويلية والمفهومية للدّلالة المعجمية، مركز النّشر الجامعي، منوبة – تونس.

ـ ( ) عبد الحميد جحفة: مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، ط2،

ـ ( )ينظر: عبد السّلام عيساوي: الأبعاد التأويلية والمفهومية للدّلالة المعجمية.

ـ ( ) عبد الرحمن طعمة: توظيف علم الدّلالة المعجمي في حقل التّفسير القرآني (مقاربة تحليلية في علم الدّلالة التّفسيري)، دار كنوز المعرفة، عمان– الأردن.